أسامة غريب

وزن الروح

فريق متميزون
E-BOOK

دَارْ دَوِّنْ

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة إلى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب إلى نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم إلى الجروب

انضم إلى القناة

وزن الروح

الكاتب: أسامة غريب

إهداء..

إلى المهندس يحيى حسين عبد الهادي

مثال التماسُك النفسي والوطنية الحقَّة

ببساطة.. ودون ادِّعاء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحَشوم

الثورة قامت ضدَّ الشرطة الساهرة على أمن الوطن، وضدَّ القضاء الشامخ النزيه، وضدَّ أزهى عصور الديموقراطية..

نحلم بحياة تخلو من الأشياء العظيمة السابقة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الأيــام

اصطدم بي بينما كنت أعبر مسرعاً في طريقي للخروج من المستشفى بعد زيارة أحد الأقارب.. توقفت لبرهة محاولاً أن أتذكّر أين رأيت هذا الوجه.. ثم قفزت الذكريات إلى ذهني متتابعة.. هذا التومرجي الذي يقف أمامي محملقاً ومعتذراً بعدما أطاح بي كان صديقاً لي في وقت من الأوقات، بل كان من أعزِّ أصدقائي قبل أن تفرِّق بيننا الأيام. عرفني كما عرفته، وفتح أحضانه لي معانقاً، ثم دعاني إلى كوب شاي بكافيتيريا المستشفى.

كنا في الثانوية العامة شلة من الأصدقاء، جمعتنا جيرة المسكن وصداقة الشارع، وقرّبت بيننا هوايتان: كرة القدم والشطرنج. كانت مباريات الكرة تأخذنا حتى أذان المغرب، وفي المساء كنا نقيم مسابقات للشطرنج على القهوة إذا توفَّر ثمن المشروبات، أو جلوساً على حَجَر كبير كانت له شهرة في ذلك الوقت، ويقبع على ناصية شارعنا بالظاهر. بعد انقضاء النصف الأول من العام الدراسي بدأ عددنا يقلُّ؛ لانكباب البعض على المذاكرة على حساب الشطرنج وكرة القدم، أما الأوفياء للهو من أصحاب الأعصاب القوية فلم يسمحوا لشيء أن يعوقهم عن الحياة الطبيعية، واستمروا يلعبون..

كل ما تغيَّر هو أننا توقفنا عن الذهاب إلى المدرسة، وأصبح اليوم كله حراً. كانت السهرة تبدأ من بعد المغرب حين نصحو من النوم، ويتأبط كل منا كتاباً أو كتابين، وينزل من البيت ليذاكر عند "واحد صاحبه"، مصحوباً بدعوات الأهل الطيبين. كان التجمُّع يبدأ عند عربي في بيته الآيل للسقوط، والذي هرب منه معظم السكان وتركوه لنا نرتع فيه. التفكير في العشاء كان يستغرق وقتاً طويلاً، وينتهي في الغالب وقد حُسم الأمر لصالح حلة كشري من عند أحمد موسى في ميدان الجيش، أو لصالح سندوتشات طعمية من عند عدوي في شارع الشيخ قمر.

بعد العشاء يبدأ التفكير في السجائر التي ينبغي أن تصمد حتى الصباح؛ لكي لا يتعكَّر المزاج وتفسد الليلة.. كل واحد يضع ما معه من نقود، وتتم عملية حسابية لنعرف كم سيجارة يمكن شراؤها، وكثيراً ما كنا ننحاز لسجائر بوسطن أو بلمونت؛ لأن السيجارة الواحدة كانت بقرش صاغ، أي أرخص من الكليوباترا التي تكلِّف السيجارتان منها خمس تعريفات. أيُّ محاولة للمذاكرة كان يفسدها شجار لاعبي الشطرنج الذي لا ينقطع حول من يأخذ اللون الأبيض، فتكون له ضربة البداية، أو بسبب تبييت الملك مع لمس الطابية أولاً وهو خطأ شائع يقع فيه الهواة.. ومن لا يلعب الشطرنج فإنه كان يندمج في حكايات وحوارات جانبية.. المهم أن أحداً لم يكن يستطيع التركيز في المذاكرة، ولهذا كانت تخرج من عندنا في بيت عربي الآيل للسقوط بعثات ليلية تمرُّ على الأصدقاء الساهرين الذين يذاكرون بحق وحقيق في شارعنا والشوارع المجاورة، وكانت أنوارهم المضاءة تشجِّع على الصعود إليهم إما للسخرية منهم وبثهم حديث التيئيس، وخلاصته أن "اللي ذاكر ذاكر"، أو لاقتناص بضع سجائر ممن تكون ظروفه حلوة. أحياناً كنا نتوجَّه لمقهى قشتمر،

وندخل على لاعبي الشطرنج هناك كالصاعقة، فنتحداهم ونخرج وقد أشبعناهم هزائم، وشربنا على حسابهم عشرات الطلبات..

لقد كنا من فصيلة اللاعبين العظماء وهذه ليست مبالغة.. كان عددنا حوالي عشرة من بينهم سبعة على الأقل من عباقرة الشطرنج الذين يحار فيهم العفريت. كنا نتدرَّب على الحساب الطويل، والشطرنج في النهاية ما هو إلا قوة التخيُّل والحساب بعيد المدي، وبسبب حداثة السنِّ والغرور فإننا لم ننضمَّ لأي فريق رسمي ممن يسافرون ويحصلون على ميداليات، لكن كان يكفينا أننا نهزم الأبطال الرسميين في أي مكان نلقاهم به. كنا كذلك نتوجَّه في جوف الليل إلى منطقة الحُسين حتى نصل إلى مقهى "الشلق" الذي كان قبلة أبطال الشطرنج، وهناك تركنا علاماتٍ وندوباً لدى الخصوم، وسجَّلنا انتصارات ضدَّ كلِّ من فكر أن يواجهنا، وكثيراً ما ينتابني الزهو إلى الآن وتعلو الابتسامة وجهي عندما أتذكر أن أصدقائي كانوا يدخرونني في تلك الليالي لملاقاة أشد المنافسين مراساً وأكثرهم خبرة..

ومن المؤسف أن المباريات التي كنا نسجِّلها على الورق والتي حملت انتصاراتنا على أعتى الخصوم قد ضاعت، ولم يتبقَّ منها ما أؤكد به لنفسي أن ذلك التاريخ المجيد كله لم يكن حلماً! أما بالنسبة للمذاكرة والامتحان الذي أصبح يدقُّ الباب، فلم أكن أعيرها كبير اهتمام.. كنت أتصفَّح الكتب حين أصحو من النوم قرب المغرب وذلك قبل الانطلاق إلى الحياة الحقيقية المثيرة بصحبة الأصدقاء، وفي كل مرة كنت أزداد يقيناً بأن النجاح لا يستحقُّ هذا الجهد الذي يبذله التلامذة الطيبون الذين يتعبون أنفسهم في المذاكرة. جاء الامتحان فكنا نؤدي المادة ثم نخرج نحتفل ونلعب الشطرنج قبل العودة للمنزل والاستعداد لليوم التالي.

ما زلت إلى اليوم لا أصدِّق أن أصدقائي ورفاق الليالي الجميلة قد رسبوا جميعاً في الثانوية العامة.. لم يشذَّ واحد منهم وينجح حتى بخمسين في المائة.. كلهم سقطوا بجدارة، ولا يمكنني أن أنسى ملامح الأسى والذهول على وجوههم ليس بسبب الرسوب فقط وإنما بسبب أنني نجحت، وكنت الأول على مدرسة الأهرام الثانوية، وهذا ما لم يغفروه لي قط، فقاطعوني وابتعدوا عني، واضطررت بعدها للانضمام إلى شلة جديدة من الناجحين والمتفوقين من رفاق الجامعة، لكن -مع الأسف- لم يكن بينهم من يضاهي أصدقائي في خفة الدم والجدعنة.. واليوم وقد قابلت عربي في المستشفى بعد كل هذه السنين هل أستطيع أن أقول للزمان ارجع يا زمان؟

نُصحي وعبد الحميد

كنت أجلس ذات يوم في مكتبي الكائن بإحدى بلاد الخليج العربي عندما سمعت جلبة وصياحاً بالخارج، بعدها انفتح المكتب واندفع شخص ضخم الجثة إلى الداخل، وهو يحمل حقيبة سفر كبيرة، ووراءه فرَّاش المكتب يحاول منعه من الدخول. أومأت إلى الساعي أن يتركه، وطلبت من الضيف أن يهدأ ويجلس.. وضع الحقيبة على الأرض وشرب كوب ماء، ثم جلس يلتقط أنفاسه، ولم يلبث أن أعرب عن حنقه الشديد على الرجل الذي حاول منعه من الدخول، وهو لا يعلم أن هذه الزيارة لا بد وأن تكون موضع ترحيب من جانبي! سألته في لطف عمن يكون، ولماذا يعتقد أن

زيارته هذه سوف تسعدني؟ قال: لقد وصلت بي الطائرة منذ ساعتين، وقد خرجت من المطار وأخذت أول أوتوبيس إلى هنا مباشرة. قلت: أهلاً وسهلاً. قال في فرح: أنا آتٍ إليك من عند حبيبك الغالي. قلت: من هو حبيبي الغالي؟ أجاب: الأستاذ عبد الحميد. قلت: نعم، فقال: نعم الله عليك يا أستاذ. قلت في ضيق: نعم تعني أكمل كلامك.. لقد أخبرتني أنك آتٍ من عند عبد الحميد، وأنا ما زلت في انتظار بقية الجملة. قال في دهشة: ليس للجملة بقية.. لقد أرسلني إليك صديقك الحميم الأستاذ عبد الحميد. قلت: أنا ليس لي صديق اسمه عبد الحميد. قال: كيف هذا؟ لقد حكى لي عن صداقتكما القديمة. قلت: أي صداقة؟ قال: لا أدري، ولكنه يعرفك جيداً، ويقول إنكما أعز أصحاب. قلت له: دعك من عبد الحميد، وقل لي من أنت؟ وماذا تريد؟ قال: أنا نُصحي من ميت أبو عزيزة، أعمل بالنجارة، وقد تعرَّفت على الأستاذ عبد الحميد عندما كنت أقوم بعمل الأبواب والشبابيك في شقته في البلدة المجاورة. قلت له: كويس.. وبعدين؟ قال: عندما علم أن معي "ورقة زيارة" لهذا البلد العربي قال لي إن كل شيء سيكون ميسَّراً، ولن أواجه مشاكل في الغربة؛ لأن أعز أصدقائه -الذي هو سيادتك- سيستقبلني ويقوم معي بالواجب. قلت له: صباح القشطة يا أسطى نصحي! قال في تلعثم وقد بدأ يقينه بالحياة الوردية يهتزُّ: صباح الفل يا باشا. سألته: وماذا حدث بعد ذلك؟ أجاب: عملت له كل الأبواب والشبابيك جدعنة ومحبة، ورفضت أن أتقاضى منه أي فلوس ما دام الرجل سيُكرمني ويُرسلني لحبيبه الذي سيستضيفني عنده حتى يوفِّقني الله لفرصة شغل آكل منها عيش.

نظرت إليه في حيرة ثم انفجرت ضاحكاً قبل أن أتوقَّف فجأة، وأسأله: أنت عبيط يا نصحي أم تستعبط؟ قال: يعني إيه؟ قلت: يعني هل أنت النصاب في هذا الفيلم أم إنك ضحية نصاب هو الأستاذ عبد الحميد؟ قال: ربنا يعلم أنني أقول الصدق. قلت: وماذا قال عبد الحميد بالضبط بشأن الواجب الذي سأقوم به معك؟ قال: أخبرني الأستاذ أنك ما إن تعلم أنني آت من عند الغالي حتى تصحبني معك للبيت وتفسح لي غرفة أنزل بها. عاودت الضحك وسألته: أي بيت.. بيتي أنا؟ قال: نعم، قلت: وهل أخبرك عبد الحميد أنني فاتح بيتي لاستقبال الغرباء الذين يبعث بهم سيادته للإقامة معي؟ قال: هو يتعشَّم فيك ويعلم أنك لن تردَّ رجاءه ولن تكسر خاطري، فنحن من مصر ونعيش في الغربة، وإذا لم نسع بعضنا ونتعاون فإن أحداً لن يحتملنا!

لم أتمالك نفسي من الضحك من جديد رداً على المهزلة التي أستمع إليها، ثم نظرت إليه قائلاً: يا نصحي يا حبيبي.. أنا لا أعرف عبد الحميد الذي أرسلك، ومن الواضح أنه استغفلك وحصل منك على شغل النجارة ببلاش، وحتى لو كنت أعرفه لما غيَّر هذا في الأمر شيئاً، ثم إن حكاية مصريين في الغربة هذه تصلح مع أحد تعرفه ويعرفك، وربما كانت تجوز في غينيا بيساو مثلاً أو في جزر الكناري؛ حيث يكون لقاؤك بمصري سبباً للفرحة والسرور، أما في هذا البلد حيث يعيش أكثر من مليون مصري، فإنك سوف تقابل منهم هنا أكثر مما قابلت في مصر!

نظر نحوي في انكسار ثم لمعت عيناه ببريق مفاجئ، وقام من فوره نحو الشنطة الكبيرة فانحنى عليها وفتحها وبدأ يُخرج منها ما تيسَّر من بط وحمام محشي وفطير مشلتت وأرز معمر، قال: كل هذه الأشياء لك يا أستاذ. شعرت نحوه بإشفاق وطلبت

منه أن يلملم أشياءه ويعيدها إلى مكانها، ثم أخذت أفكر وأعصر مخي.. بعدها أرسلت في طلب حارس البناية وجلست أنتظره، في هذه الأثناء كان نصحي يجلس واضعاً يده على خده بينما يختلس إليَّ النظرات في خُبث. قلت للرجل الذي حضر: انظر إلى هذه الحقيبة.. إنها ملآنة بخيرات ربنا من كل نوع.. طيور محمرة ولحوم وأسماك وفطائر. التفت الرجل إلى الحقيبة وبدت عليه اللهفة لدرجة أنني أحسست أن عينيه ستخرجان من محجريهما، فعاجلته: مطلوب منك أن تؤوي صاحب الحقيبة وتُسكنه معكم وسوف يُطعمكم ما بها كله. لمعت عيناه بالفرحة وقال: صحيح نحن سبعة في الغرفة وليس هناك مكان لزبون جديد، لكنني سأقتسم معه فرشتي مؤقتاً حتى تفرغ جعبته من الطعام!

ومن الطبيعي أن الطعام نفذ بعد عدة أيام، وأن نصحي تمَّ طرده من الحجرة التي آوته عندما كان معه دجاج وحمام محشي فعاد إليَّ من جديد، أخذته من يده إلى المطار وطلبت منه أن يتوجَّه مباشرة فور وصوله إلى عبد الحميد ولا يتركه حتى يأخذ منه فلوس النجارة.. مع مصاريف الرحلة التي تشمل الطيور والأسماك والفطير وخلافه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحلام التلامذة

كثرة وتنوُّع القوات التلفزيونية في أمريكا أتاح لهم أن يستحوذوا على اهتمام كل الطبقات والأعمار السنية المختلفة، حتى إنهم يُخصِّصون بعض قنواتهم لبثِّ أفلام ومسلسلاتٍ وبرامجَ تُعنى بشؤون المراهقين فقط، ومنها ما تستعيره القنوات العربيةَ التي تُعتبر عربية بالاسم فقط، لكن كل ما تبثه هو إنتاج غربي أو بالأحرى أمريكي كقنوات إم بي سي بفروعها.

عندما كنت أشاهد أحد الأفلام المعروضة على قناة "إم بي سي ماكس" التي تخصَّصت في عرض الأفلام السينمائية التي تدور أحداثها غالباً بين الطلبة في المدارس الثانوية والجامعات انتبهت إلى أن عالم البنين والبنات هذا المليء بقصص التنافس في الدراسة مع حكايات الحب والشقاوة والمقالب.. هذا العالم يبعث الأمل والتفاؤل في نفوس الشباب مع بثِّ القيم الأمريكية وتسويق عاداتهم في الطعام والشراب والثياب وطرق قضاء الوقت. لا شك أن الأمريكان استولوا بأفلام وبرامج كهذه على قلوب وأذهان الشباب في كل أنحاء العالم، وجعلوهم يتطلعون إلى محاكاة ما يرونه ولو كان لا يتفق مع تراث وتقاليد هذه الدولة أو تلك.

عادت بي الذاكرة إلى أيام الدراسة الثانوية عندما كانت أحلام جيلنا متأثرة بمصادر أخرى مختلفة؛ لأن القنوات التلفزيونية المتعددة والأطباق اللاقطة التي تنقل الواقع الغربي بتفاصيله الحقيقية والوهمية لم تكن قد اختُرِعت بعدُ. كان التلفزيون المصري بقناتيه هو مصدر الإلهام، ومعه دور العرضِ السينمائي وبالذات سينما الدرجة الثانية والثالثة.

في ذلك الوقت كانت الأفلام المصرية هي التي تمنح الإلهام لهذا الجيل وتؤثر في أحلام شبابه. لا أنسى زميلاً لي بالثانوي كان لا يفتأ يُحدِّثنا عن حلمه بأن يرافق راقصة، ويكون صديقاً لها؛ أسوة بما شاهده في فيلم "أبي فوق الشجرة"، وكان يحلم بأن يعود من المدرسة كل يوم فيجدها قد أعدَّت له الغداء، وعمرّت له الشيشة ثم بعد ذلك ترقص له، وتظل في خدمته وتلبية طلباته حتى ينام!

زميل آخر كان يتمنَّى أن يلتقي رئيس عصابة وأن يكلِّفه هذا الرئيس بمهمة واحدة هي نقل شنطة مخدرات من مكان إلى آخر، وأن يقبض في مقابل المهمة مبلغاً كبيراً يمكّنه من أن يبدأ حياته بداية مريحة!

وثالث لعبت في خياله صورة المقهى الشعبي الذي رآه في فيلم رصيف نمرة خمسة وغيره من الأفلام، ذلك الذي يقدِّم الخمور الرديئة وترقص به برلنتي عبد الحميد أو نعمت مختار، وتغني فيه هدى سلطان أو صباح، ويرتاده الأشقياء وأولاد الليل، وكان هذا الزميل يسأل عن مكان هذه المقاهي التي كنا نشاهدها بالأفلام ولا نعرف مكانها في الواقع! وزميل آخر لنا في نفس المدرسة كانت أمنيته أن يكتسب مهارات محمود المليجي في فتح الخزائن والأقفال. كان التأثر واضحاً بأفلام المرحلة التي لم تخرج عن المطاردات والأكشن وبطلها فريد شوقي وحش الشاشة ومعه المليجي وتوفيق الدقن وبقية الشلة، أو الأفلام العاطفية المليئة بالخيانة والرذيلة.

وعلى الرغم من أن الشر في الأفلام كان يندحر في العادة أمام الخير في النهاية، إلا أن سخافة الأخيار الأبدية وثقل ظلهم بالقياس إلى حلاوة وخفة دم المجرمين والفَجَرَة لم تكن تترك فرصة للشباب أن يحلموا بمحاكاة مثال طبيب ناجح أو مهندس محترم أو رجل علم، وإنما ملأ خيالهم دائماً مجرمون يتَّسمون بحبِّ المغامرة والاستهانة بالأخطار وتداول النساء! لكن الأمر الذي يحيِّرني هو حقيقة أحلام بنات الثانوي في جيلنا، وهل كنَّ يشاركننا نفس الأماني الآثمة كأن يكنَّ راقصات وغوانيَ ممن يقع في غرامهنَّ رشدي أباظة وشكري سرحان، أم كانت لهنَّ أحلام شريفة تتعلق بالطبِّ والمحاماة والأمومة؟! أياً ما كانت الإجابة فإن تعاقُب الأجيال لم يعالج مشكلة الخلل في التمثل والهضم واحتذاء مثال لا يكون في سفالة ستيفان روستي وظرفه، أو انفلات أبطال مسلسل "فريندز"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الميني بار

تختلف الأولويات باختلاف المرحلة العمرية.. كنت في فندق خارج مصر منذ أسابيع قليلة، ووجدت نفسي أفتح الثلاجة الصغيرة التي يضع بها الفندق زجاجات الماء والعصائر وبعض قطع الشوكولاتة والبسكويت، ولقيتني أسحب زجاجة ماء وكيس فول سوداني.. عندما بدأت في تناول حبات الفول عبرتني فكرة مفاجئة أخذت بُعدها في الضحك المتصل.. ضحكت على هذا السلوك الجديد الذي لم أكن أفعله في السابق، فلقد عشت زمناً طويلاً أضحك مع الأصدقاء على الزبائن المغفَّلين الذين ينزلون بالفنادق ثم يتناولون الأشياء السخيفة التي يمتلئ بها الميني بار، ثم يدفعون مبلغاً كبيراً ثمناً للبلادة والغفلة والغشم الذي منعهم من النزول أسفل الفندق والحصول من البقال على كل ما يريده المرء بقروش قليلة.. إذ من المعلوم أن ثمن زجاجة ماء واحدة بالفندق يساوي كرتونة ماء كاملة عند البقال، ومن الممكن أيضاً لمن شاء أن يتصل بالبقال ليحمل إليه ما شاء من سلع إذا لم يكن الفندق يضع قيوداً على ذلك! وبطبيعة الحال لا ينطبق التنظير السابق على ما قد يطلبه المرء من مأكولات ووجبات بالفندق، حيث إن الكثير من الفنادق يقدِّم طعاماً متميزاً يستحقُّ ما يُدفع فيه. ما كان يثير السخرية هو الميني بار العبثي المصنوع من أجل التنابلة والكسالى.. نفس فكرة البقال الموجود أسفل المسكن في كل بلاد العالم والذي لا يتنافى وجوده مع وجود محال السوبر ماركت العملاقة.. في الماركت الكبير تكون السلع أوفر والأسعار أرخص.. أما البقال المجاور فهو للكسالى أو للمضطرين ليلاً، ولذلك فإن أسعاره دائماً أغلى.. ولهذا رزقه ولذاك رزقه أيضاً.

يا إلهي.. ها هي السنين تمرُّ وأجد يدي تمتدُّ إلى الثلاجة لآخذ منها ما يضعني مع التنابلة في صفٍّ واحد.. ما الذي حدث؟ هل فتَّ الزمن في عضدي وأصبحت أركن إلى الكسل مثلما يفعل من كنت أضحك عليهم؟ ليس لليسار المادي دخل في الأمر، فلم أكن فقيراً حين كنت أنزل لأتمشى في الشارع وأشتري مستلزمات التسالي والقزقزة. لا شك أن الأمر لا يأتي بغتة، لكنه يحدث بهدوء وبطء.. في الأول يكون الإنسان وافر الطاقة شديد النشاط يتطلَّع إلى أوجه يضع فيها طاقته، فلا يترك باباً للجهد إلا طرقه. وقتها يفضِّل الإنسان المتجر البعيد والمطعم البعيد ولا يشعر بالتعب وهو يفطر في مدينة ويتغدَّى في مدينة أخرى، ويشاهد فيلماً سينمائياً في مدينة ثالثة.. في تلك الفترة من حياة الشباب يكون الرصيد من الصحة والقوة أكبر غالباً من الرصيد في البنك، ومن ثم يصرف الإنسان مما لديه، ويفعل بنفسه كل الأشياء التي يرى مَن دونه سناً وفتوة يستخدمون آخرين في قضائها لهم. وربما كان في مرحلة من حياته ممن يقضون للآخرين حاجاتهم مقابل المال أو الخدمات أو الاستمتاع بصحبة الكبار. ثم يبدأ إيقاع الحياة اللاهث في الإبطاء شيئاً فشيئاً، ويجد الإنسان نفسه يعتذر أحياناً لأصدقائه عن الخروج، ويفضِّل قضاء السهرة بالبيت، ثم يستسهل استعمال السيارة بداعٍ ودون داعٍ، فيذهب بها لكل مكان حتى لو كان على ناصية الشارع، ويقلل من المجهود الحركي ويقضي جالساً وقتاً أطول، ثم يصبح السير مسافات طويلة ضرباً من الماضي السعيد. في كل هذه الأثناء لا يتوقَّف السفر للخارج ولا النزول في الفنادق، لكن يظلُّ فتح الميني بار من الممنوعات؛ ذلك أنه قد

ارتبط في الذهن بالخيبة والترهّل التي يحرص المرء على دفعها عن نفسه.. لكن اليوم يبدو أنني بدأت عهداً جديداً دون أن أدري.. عهداً اختلفت فيه الحسبة، فأصبح توفير الطاقة البدنية والذهنية أكثر فائدة حتى بالحسابات المادية؛ لأن في ذلك صيانة للقدرة التي لم تعد بلا حدود كالسابق، وهي في النهاية التي تجلب المال الذي يغطي نفقات الحياة.. ولا بأس أن يكون من ضمن هذه النفقات كيس الفول السوداني الموجود داخل الميني بار!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ومن شر حاسدٍ إذا حسد

أشعر بصدمة لدى زيارتي لشخص أو عائلة عندما أطالع على باب الشقة كفاً له خمسة أصابع وضعه صاحب البيت أو خرزة زرقاء، أو الكف والخرزة معاً لدرء الحسد! أشعر وقتها بانقباض وأفقد رغبتي في الزيارة، وقد حدث بالفعل أنني عدت أدراجي وألغيت الزيارة أكثر من مرة، وتعللت تليفونياً بعد ذلك بأي عذر نتيجة عدم قدرتي على التظاهر بالسعادة في وجود مضيف يتوجَّس خيفة من ضيوفه، فيضع على بابه تعاويذ يظنُّ أنها تقيه شرورهم، وتمتص الأشعة المؤذية التي أتوا لينشروها في بيته.

لم تفلح الأيام في أن تقنعني بحسن نية من يفعلون هذه الأشياء، ولا في تصوُّر أن هذه الطقوس الوثنية قد تفلح في حماية من يؤمنون بها، ولعل هذا يرجع إلى إيماني الحقيقي بأن النافع هو الله والضار هو الله، وأنه إن اجتمعت الإنس والجن على أن يضروك بشيء لم يرده الله لك ما استطاعوا، ويدهشني أن هؤلاء المشركين بالله يظنون أنفسهم أكثر الناس إيماناً وتقوى بسبب مئات المرات التي يقرأون فيها المعوذتين كل يوم في وجه من يلقي عليهم تحية الصباح والمساء، ومن يمتدح حُسن طلعتهم أو ذوقهم في اللبس، أو حتى يتلطَّف بكلمة حلوة -لا يعنيها- من باب الذوق. ولا أظنني أغالي عندما أعتبر هؤلاء الناس من المشركين بالله الذين يظنُّون أن بعض عباده قد يفرضون مشيئتهم على غير إرادة الله سبحانه وتعالى، أو أنهم يُصدرون إلى الله تعليمات بإيذاء هذا ومرمطة ذاك فيمتثل لهم وينفذ أوامرهم!

والغريب أنك عندما تجادل أياً من هؤلاء في أمره لا تسمع منهم إلا الجملة التالية: "استغفر ربك يا رجل.. الحسد موجود في القرآن". يقولونها وكأنني أجهل أن الحسد مذكور في القرآن فعلاً. مشكلة هؤلاء الناس أنهم يستسلمون للتفسيرات التي توافق هواهم، ولا يتقبلون تفسيرات لعلماء أفاضل قالوا في مسألة الحسد هذه أنه لا يكفي أن يقوم الحاسد بتمنِّي زوال نعمتك حتى يتحقق له ما يريد، وإنما الحسد الوارد في القرآن يقتضي أن يشفع رغبته هذه بفعل وعمل مؤذٍ يحقِّق له النتيجة التي يتمناها، أما لو اكتفى بأن يترك الغيرة تنهش قلبه وهو جالس في مكانه لما تحقَّق له شيء مما أراد. وفي هذا الخصوص لا تتوقف عندي الأسئلة من عينة: ولماذا لا يقوم هذا الحاسد الجبار الذي تعلو مشيئته على مشيئة الخالق بنفع نفسه بدلاً من أن يكتفي بالإضرار بالغير؛ ليساووه في الخيبة!

إن خطورة شيوع الاعتقاد في هذه الأشياء يكمن في أنها تنشر البغضاء بين الناس وتجعلهم يتربَّصون ببعضهم بعضاً، فضلاً عن كونها تعمِّق الرياء وإظهار الودِّ المصطنع مع إخفاء المشاعر السلبية تجاه الآخرين، والتي تتولد بطبيعة الحال نتيجة إيماننا بأنهم يكرهوننا ويتمنون زوال نعمتنا. ولننظر كيف يكون الحال في العلاقات بين الناس وكل منهم يظنُّ الآخر حاسداً حقوداً، ولنتطلَّع إلى حواراتهم التي يكتفي كل منهم فيها بإيراد الأخبار السيئة عن الصحة المعتلَّة، والزوج المناكف، والتجارة الكاسدة، والحال الواقف، والولد الذي ذهبنا به للدكتور ثلاث مرات هذا الأسبوع،

والخسائر في البورصة، والدروس الخصوصية قاصمة الظهر، ولا ننسى الإكثار من ذكر الرقم خمسة بمناسبة ودون مناسبة، وإقحام يوم الخميس في الحديث.

أي حياة هذه التي يعيشها الناس وهم يظنون الدناءة في الأهل والأصدقاء والجيران؟ وأي أمل في السعادة وهم يعتقدون أن سوء الظن هو الذي يحميهم، والتعاويذ التي يضعونها على الباب هي التي تكفل سلامتهم، وأن التخميس في وجه الآخرين هو حائط الصدِّ ضدَّ المكر السيئ للأخ والأخت والصديق والجار الذين يتمنون لنا زوال النعمة، بينما هؤلاء جميعاً يظنون فينا نفس الشيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سماح يا أهل السماح

ما أجمل السماح والصفح والغفران.. هي أشياء مَن تحلَّى بها فقد مسَّه قبس من روح الله الذي سمَّى نفسه العفوّ الكريم؛ السماح يجعل النفس أصفى والقلب أرقى والروح أغنى، وقد قام العرب من قديم بتمجيد قيمة العفو عند المقدرة والحديث عنها باعتبارها من شيم الكرام أصحابَ النفوس العالية. لا تكمن روعة السماح فقط في أنه يعطي إنساناً الفرصة لأن يعود عن خطئه ويعمل على محوه فيستعيد جدارته بالثقة، وإنما في أنه يزيح عن كاهل صاحبه هماً ثقيلاً يحدُّ من خطوه ويعوق قدرته على استعادة الإيمان بالناس..

لكن مشكلة السماح أنه ليس سهلاً ويحتاج لقدر كبير من العزم والرقي النفسي.. فهو يتعارض مع رغبة بشرية طاغية ومحببة إلى نفوس البشر اسمها الانتقام. والانتقام كما يقولون أشهى من العسل.. ومن ذا الذي يكره أن يسدِّد ضربة موجعة لمن أهانه أو أذله أو استحلّ ماله؟ إن هناك من يقضي عمره كله سعياً وراء الثأر، وقد يخرج من داره ذات صباح ولا يعود إليها حتى ينهي المهمة ولو استغرقت سنين. يحتاج السماح إذن إلى طاقة روحية كبيرة تتغلَّب على لذة الانتقام، لكن حتى إذا صفا القلب ولم تعد به رغبة في الثار فإن عوائق أخرى تظل في انتظار الراغب في الصفح، منها نظرة الناس إليه.. فأغلبهم قد تأخذهم به الظنون إذا سامح، فيعتقدون أنه ساوم على حقه أو قبض مقابل الإهانة أو قد يرونه جباناً رعديداً خشي عاقبة المواجهة وآثر عليها الخنوع المغلَّف بادِّعاء الصفح والسماح.

وفي هذا الخصوص يمكن القول بأن المجتمعات التي تغيب عنها قيم الدولة الحديثة وتغلب عليها الروح القبلية يكون السماح فيها أكثر صعوبة؛ حيث يأخذ التفاخر أحياناً صوراً متطرفة قد تضع المتسامح في خندق الجبناء.. وليس هناك ما يعبِّر عن هذا أبلغ من قول الشاعر:

ألا لا يجهلنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا!

أين بالله يمكن في جو كهذا أن يكون للسماح مكان؟ وإن من أفضال الدولة الحديثة التي يعلو فيها القانون أنها تجنِّب المواطن أن يأخذ ثأره بيده، فتجعل الشعور بالظلم أخفَّ والقدرة على التسامح أكبر. لكن تظلّ هناك دائماً عوائق نفسية ومجتمعية تحول بيننا وبين السماح، فهناك الخوف من أنَّ من نرغب في مسامحته قد لا يفهم حقيقة موقفنا، ويظنه نابعاً من ضعف، فكيف لنا أن نضمن أن الأخ الذي نسامحه ونفتح معه صفحة جديدة سيتحلى بالفهم والتمييز، وسيقابل موقفنا الجميل بالشكر والامتنان؟ من يدري فربما صوَّرت له نفسه أننا نقوم بمناورة أو نسعى للاقتراب حتى يسهل علينا تسديد الضربة الموجعة. إنني ما زلت أذكر في هذا الشأن رحلة السادات المشؤومة إلى القدس عندما كان في استقباله كل أركان دولة الصهاينة، وقد قيل وقتها إن القوات الإسرائيلية كانت متأهبة وفي أقصى درجات الاستعداد بالمطار في انتظار طائرة السادات؛ لأنهم خشوا أن تكون مسألة طيِّ صفحة الماضي ومدِّ اليد بالسلام عبارة عن خُدعة ساداتية، وأن الرجل قد أرسل لهم طائرة مليئة بالكوماندوز الذين سيقومون بقتل قادة إسرائيل في ضربة واحدة!

من معوقات القدرة على التسامح أيضاً بعض الأمثال الشعبية التي يعتنقها الناس ويظنونها دستوراً أبدياً يحكم حياتهم، مثل مقولة إن "ما ينكسر لا يمكن إصلاحه"، أو إن "ذيل الكلب لا يمكن عدله". تعمل هذه الأمثال في الحقيقة على إغلاق نوافذ الرحمة في القلوب، وتدفع الناس إلى نبذ السماح خشية ألا يكون مجدياً، ومخافة أن تكون تضحيتهم ستذهب إلى من لا يستحقها.. وقد يخشون أيضاً من أن شبح الماضي سيطاردهم ويفسد عليهم الحياة بصحبة من سامحوه، ولهذا قد يظلمونه بينما يكون قد تاب حقاً وندم على خطئه وعزم على التعويض عنه.

جميلٌ السماح حقاً.. لكنه ليس سهلاً بالمرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحزان شارع "9"

للكتابة مستويات عديدة وما يفهمه البعض منها يختلف عما يفهمه البعض الآخر.. كذلك ما يفهمه الواحد الآن يختلف عما سيفهمه ويحسُّ به بعد مرور فترة من الزمن، وهناك من الأعمال ما يُكتب له الخلود؛ لقدرته على التأثير في الناس طوال الوقت، ومع اختلاف العصور والأوقات والأمزجة. لكن أحياناً تنتاب الإنسان بعض الحيرة عندما يتصوَّر ما يكتبه واضحاً ثم يكتشف من ردود الأفعال أن الأمر ليس كذلك، وأغرب ما يحدث هو أن يحصل الإنسان على ثناء لا يستحقُّه بفضل الفهم الخاطئ الذي يجعل البعض أحياناً يخطُّون رسالة لكاتبهم مملوؤة بالحب والتقدير على مقاله الذي تبنى وجهة نظرهم التي تقضي بكذا وكذا.. مع أن الأمر في حقيقته كان مختلفاً تماماً؛ لأن الكاتب كان ميالاً لعكس وجهة النظر التي جلبت له الثناء! وأنا شخصياً كثيراً ما يصيبني الضجر من الكتابة في السياسة والتعليق على الأحداث المتلاحقة المتعلقة بهموم الوطن، فأجنح نحو كتابة من نوع مختلف أروي للقراء فيها حكاية ذات دلالة، عشتها وتابعت أحداثها أو كنت شاهداً عليها، وأحياناً أطرح قضية تحتاج للتأمل والرويَّة وإمعان التفكير قبل الحكم عليها..

لكن أحياناً أجد أن القارئ الذي يعيش على أخبار الثورة ويتنفسها صباح مساء ويتابع منذ سنة ونصف أخبار انتصاراتها القليلة والضربات الوحشية التي تُوجَّه لها، يستقبل كل الكتابة باعتبارها تدور حول المجلس العسكري والإخوان المسلمين، ويعتقد أن المقال مليء بالإسقاطات السياسية، كما يظنُّ أن الحدوتة الاجتماعية التي يسردها الكاتب تخفي وراءها أفكاراً وعرة من كاتب حويط لا يريد أن يواجه الأطراف السياسية برأيه في أدائها، فيلجأ إلى الرمز ويمارس الكتابة الغامضة التي تنتقد العسكر وتنال من الإخوان وتهاجم الوزراء وتهزأ بهذا وتسخر من ذاك، متخذاً من الفن القصصي ستاراً للآراء الرهيبة التي يعرضها!

وأنا في حقيقة الأمر أعذر القارئ الذي لم يترك له الظالمون متنفساً يرى منه حقيقة مغايرة للهراء الذي يملؤون به مخه، أو فسحة من عقل يمكن أن تخلو من أخبار عن محاكمات عسكرية للمدنيين وبراءات للضباط القتلة أو إهانات لأهالي الشهداء.. وهو الأمر الذي يجعل القارئ لا يتصور أن هناك كاتباً عاقلاً يمكن أن يترك الوليمة الدموية ويعرض عنها، ثم يحكي لهم حكاية لا علاقة لها بالأحداث الساخنة الجارية.

منذ أيام كتبت تغريدة على تويتر قلت فيها: "زمان كنت أحلم بأننا سنجعل العالم مكاناً أفضل.. والآن يكفيني أن يرصفوا شارع 9". كنت أتحدث بأقل عدد من الكلمات عن الأماني المستحيلة وعن العمر الذي ضاع، والقطار الذي وصل بنا لمحطة الحسرة بعد أن تكسَّرت أحلامنا وضاعت مع الحكام الهلافيت القتلة، وكنت بيني وبين نفسي أستحضر قصيدة الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي "مرثية العمر الجميل" التي كتبها وقت أن كان لا يزال يكتب الشعر.. وظننت أن المعنى واضح ولا يحتاج إلى كتالوج، لكني فوجئت بردود جادة تسألني هل كنت أقصد شارع 9 بالمعادي أم شارع 9 بالمقطم؟ ثم وجدت بعض من يعرفون أنني أسكن بالمقطم يكتبون عن مشكلات أخرى بالحي مثل الحفرة المجاورة لأسماك الدوران، أو

سنترال المقطم والخطوط الأرضية الناقصة لديه أو تكدس عربات التوك توك عند مساكن الزلزال...

كل هذه مشكلات حقيقية يعاني منها أهل المقطم، لكني كنت أتحدَّث عن أمر آخر بخلاف المشكلات العجيبة التي لم تعد موجودة بأي بلد طبيعي يحكمه بشر وليس كائنات جلفة غليظة المشاعر نجحت في إحداث فجوة بيني وبين أناس يشكلون المجال الحيوي الطبيعي لي ككاتب وكإنسان، فجعلتهم من فرط المعاناة مع السلطة ومع المحليات لا يرون أحزاناً سوى أحزانهم، ويتصورونني حامل لواء عذابات سكان المقطم الذي سيكيل الضربات لرئيس الحي؛ حتى يفرغ من رصف شارع 9 قبل رمضان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أحبُّوا أعداءكم!

يتلاقي الجيشان في الموقعة الحربية، فيلتحم الجنود في صراع ضارٍ، ويحاول كل منهم أن يبدي أقصى قدر من العزم والشجاعة في مواجهة عدوه، ويسعى بإصرار لا يعرف الكلل إلى قتل أكبر عدد من جنود الجيش المعادي.. هذا الجندي الباسل يستند في طرد الخوف من قلبه إلى استدعاء الغضب وتركه يستعر في داخله، فيستمر الحنق والأدرينالين المتدفق في إمداده بالطاقة والعزم لافتراس المزيد من الجنود وتقطيع أوصالهم وإذلال من يقع في الأسر منهم.. كل هذا يفعله الجندي الباسل من أجل الشرف والمجد.. الشرف لنفسه والمجد للسلطنة أو المملكة أو الإمبراطورية، ولصاحب المقام الرفيع حاكم البلاد الذي أشرف على قيادة الجيش ودفع رجاله لمحاربة قوم لا يعرفونهم، وقتل رجال لم يسيئوا إليهم، وتخريب ديار قد تكون لم تمد لهم اليد بأي أذى!

هذا هو ما يحدث على مرِّ التاريخ.. الجندي الذي انتزعوه من أحضان زوجه وأطفاله؛ ليدفعوا به إلى قتال لا يعرف أسبابه، ومعركة لن ينجو منها إلا إذا قام بقتل كل من يصادفه من رجال هم مثله تماماً لهم عائلات وأطفال، ولديهم أرض تحتاج لمن يزرعها لإطعام أفواه الصغار.

لكن ترى ما الذي يجعل الرجل ينصاع ليكون ترساً في آلة للقتل في معركة لا تخصُّه، وإنما فقط تُرضي طموح القادة والملوك الذين يتصارعون من أجل توسيع رقعة المال والنفوذ والسيطرة؟ ما يجعله ينصاع هو الخوف من العقاب، فالملوك يضرب الواحد منهم بمَن أطاعه مَن عصاه! ولا يعني رفْض المشاركة في القتال الموت فقط، لكن تلويث الشرف، والعار الذي تنشط ماكينتهم الإعلامية في إلحاقه بذريته وأبنائه. وهناك أيضاً الحوافز التي يقدِّمها السادة للعبيد حتى يحصلوا على مجهودهم الحربي، والتاريخ يذكر لنا أمثلة عديدة لهذا النوع منها القاتل الأشهر "وحشي" الذي دفعوه لقتل رجل يحبه ويحترمه ويقدِّره كل التقدير هو حمزة بن عبد المطلب، مقابل حريته التي لم يحصل عليها أبداً.. على الرغم من أنهم أعتقوه!

في مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلي عن حرب أكتوبر أتى إلى ذكر حالة أحد الجنود التي مرَّت به وقت أن كان قائداً لأركان الجيش يعمل على الإعداد للمعركة.. ذكر الشاذلي أنهم عرضوا عليه مسألة غريبة تتعلق بجندي يرفض القتال، وأنهم يخشون من تأثيره على الروح المعنوية لبقية الجنود، وقال الشاذلي إنهم أخبروه بأن هذا الفتي يتعلل بأنه شخص مسالم لا يستطيع قتال حتى الذين يعتدون عليه، وأنه غير مؤهل للقتل ولا يؤمن بالحرب كوسيلة لحل المشكلات بين البشر. بطبيعة الحال فإن السجن كان مصير هذا الشاب الذي يسهل على الجميع وصفه بالجبن والتخاذل والخيانة، خاصة أن الحرب التي دُعي إليها كانت حرباً عادلة من أجل تحرير الأرض التي اغتصبها بالحرب عدو غادر خسيس.. لكن قد يكون من المفيد النظر إلى الأمر من زاوية أخرى هي أن هذا الشخص إنسان مختلف حقاً، له قناعات يصعب علينا فهمها؛ لأننا لا نقف معه على ذات الأرضية الفكرية والنفسية،

وأنه قد لا يكون مَن حسبناه خواراً جباناً، بل شخص آمن حقاً -على العكس منا جميعاً- بمقولة المسيح: "أحِبُّوا أعْدَاءَكُم، بَارِكُوا لاعِنِيكُم، أحسِنُوا إلى مُبْغِضِيكُم"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألطف الكائنات!

من لم ينجب بناتٍ لم يعرف السعادة ولم يذق الحنان والحب.. هذه المقولة أسمعها كثيراً وأصدِّقها، وأصدِّق كذلك أن الكثير من مشاعر الفرح والبهجة تغيب عن ذلك الذي كانت خِلفته كلها من الذكور. والعقل لا يكاد يصدِّق كيف كان العرب في الجاهلية يقومون بوأد البنات، وكيف كانت قلوبهم تحتمل أن يقطعوا عن أنفسهم شريان الرحمة والوداد؟

البنت هي زهرة فوَّاحة يفيض ضوعها وأريجها على البيت، ويتواصل عبير روحها أينما حلَّت، وهي كذلك مصدر رزق وخير كثير لأبيها؛ لأن مشيئة الله جرت أنه يكرم الأب لأجل ابنته. ليس هذا فقط وإنما يعود إلى البنت الفضل في ترويض الفكِّ المفترس داخل الأب وجعل قلبه أرقَّ من قلب العصفور.. ولأجل خاطر عيونها وخوفاً على إحساسها المرهف فإن الأب في العادة لا يتفوَّه بألفاظ خشنة في البيت؛ حتى لا يصدمها ويؤلمها، على العكس مما لو كان البيت يعجُّ بالأولاد الذكور. ولعل إيماني بكل هذا هو ما يدفعني لأن أحمد الله كثيراً أنه لم يرزقني بالبنات.. تسألني لماذا؟؟ أقول لك: لكل الأسباب السالفة فإنني لم أكن لأحتمل أن أستثمر فيها عمري وأضع بها كل جميل وأربيها على النظافة والنقاء والثقافة والبر.. لم أكن لأحتمل أن أجعلها تحب الفنون وتعشق الخير والجمال وتنفر من الغلظة والكآبة والتعصب ثم يأتي أحد الأنطاع ليأخذها مني لأنه سيصبح زوجها! ستقولون هذه سُنة الحياة ولو لم تتزوج البنات لما استمرت الحياة وما عمرت الأرض..

ستقولون هذا وكأنني أجهله. إنني أعرف هذا تماماً وأعرف أن البنت من حقها أن تحب وأن تتزوج وأن تهدي للدنيا أبناء صالحين.. ولكن ماذا أفعل في نفسي؟ إنني لا أقوى على احتمال فكرة أن يأخذ ابنتي رجل حتى لو لأجل إسعادها.

مشكلتي الكبري أنني لن أقبل برجل لا يعرف قيمة ابنتي، وفي الحقيقة لا يوجد رجل يعرف قيمة ابنتي كما أعرفها، ذلك أنني أؤمن بأن الرجل كائن أناني لو أسلمته طفلتي فإنه سيعتصرها حتى الثمالة، وفي الغالب سيسيء إليها ويجرحها؛ بسبب جهله وغبائه وعدم تقديره لقيمتها.. صحيح أن هناك شباناً طيبين (في الإطار الضيق لما يمكن أن يبلغه رجل من طيبة)، وصحيح أنه قد يتصرَّف معها بذوق وشياكة، لكن هذا لن يقنعني؛ لأنني أعرف أن هذا كله في أوقات الرخاء، وأنه يؤخر إظهار شراسته لوقت الغضب والضيق، وهذا الوقت آتٍ بطبيعة الحال.. فماذا أفعل وقتها؟ ماذا أفعل إذا انفعل يوماً فشتم ابنتي أو زاد غضبه فضربها؟ هل أستسلم للانهيار العصبي وأدخل مستشفى الأمراض العقلية، أم أتصرف التصرف الطبيعي فأقتله وأمثِّل بجثته قبل أن ألقيها في النار؟ إن الأمر لا يتعلق بكون العريس "متربي" أو "قليل التربية"، "جدع" أم "نذل"، لكنه يتعلق بشخص يعطيه الشرع والقانون الحق في أن يجعلها تزورك أو يمنعها عنك.. تصوروا هو الذي يقرر إذا كان يسمح لي برؤية ابنتي أم لا! وهو الذي يحدد موعد الزيارة وزمنها.. فيا للمهزلة! شخص تافه عديم الذوق والفهم هو الذي يقرر ما يخصني أنا وفلذة كبدي!

ماذا يعرف الحيوان عما بيني وبينها؟ ما أدراه بما يربطني بها ويربطها بي؟ إن أقصى ما يفهمه أنها خُلِقت لتطبخ له وتكوي ملابسه!

والمأساة أنني سأظل أتملقه طول العمر خشية أن أعامله بما يستحق فينتقم من ملاكي الذي في بيته! ولن يفرق إذا كان الشخص متديناً أم بعيداً عن الدين.. في الحالتين سأقاسي الويل، بل إن المتدين قد يستند إلى الشرع والدين في أن يضربها وهو مستريح البال بدعوى أنه لا مشكلة في تأديب الزوج لزوجته! ابن الجزمة المنحرف هو الذي سيؤدِّب ابنتي! كما أنه قد يندفع متدثراً بالدين فيتزوج امرأة أخرى أو أكثر؛ لأن الشرع يبيح هذا.. وحتى لو فرضنا أنه لن يفعل شيئاً من ذلك كله، وأنه سيعاملها معاملة طيبة وسيجعلها تحبه.. أليس هذا هو الخطر بعينه؟ إن البنت وهي في حالة حب تكون في غاية الهشاشة وخاصة ابنتي الطاهرة الرقيقة، ومن الممكن في هذه الحالة أن يلعب بها الكرة.. أنا لست تلميذاً.. لقد خبرتُ الحياة، وأعرف ما يمكن أن تقدمه الفتاة من تنازلات إذا أحبَّت، ولا أرضي أن تتسحق إرادة ابنتي في حب إنسان مهما حسُن فإنه لا يستحقها!

إن نصيحتي الصادقة لأي شاب يبحث عن عروس هي أن يتخيَّرها يتيمة لا أب لها؛ حتى لا يجلب لنفسه خصماً لن يصفو له أبداً. وهناك شيء آخر لا أخجل أن أعترف به.. أنا أكره أن تحبَّ ابنتي رجلاً آخر مهما كان كريماً.. إنها جزء مني بل إنها أفضل جزء، ولهذا فإنني أولي الناس بحبها واهتمامها.. ستقولون إن حب البنت لأبيها وبرها به لا يمنع أبداً من أن تسعد بالزواج والحب.. هذا الكلام يغيظني لأنه يفترض بي العبط وكأنني لا أعرفه..

إن كل الحكمة والمعرفة والذكاء والثقافة لا علاقة لها بمشاعري نحو طفلتي.. نعم طفلتي وستظلُّ طفلتي طوال العمر مهما كبرت في السن، ومهما اعتراها من تغيير، وهذا وجه آخر من وجوه المأساة.. إن زوجها سيحبها فقط ما دامت جميلة ورشيقة، لكنه سيعرض عنها إذا تقدَّمت في السن وتغيَّرت ملامحها وترهَّل جسدها، أما أنا فسأحبها في كل أحوالها، وسأراها الملاك الذي لا يشيخ، والمنارة التي لا يخبو ضوؤها، وحبي هذا سيجعلني لا أتردَّد في أن أشتري لها وهي متزوجة كل ما يلزمها ويسعدها، حتى لو اشتريت لها شقة وسيارة.. لكن عذابي سيتزايد وأنا أرى النطع يقود سيارة ابنتي وينام في شقتها وينعم بفلوسي.. لا لا أنا لا أحتمَّل هذا.. لا أريد بنات.. وليبارك الله لي في أولادي الصبيان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا ضاربا في الحَشوم

تعوَّدنا أن يظهر لنا الدرويش ذي الأسمال البالية كلما جلسنا على المقهي بالحسين. كان في اقترابه بخطواته المتوجسة وعينيه اللتين تدوران في محجريهما يبعث القلق في نفوس الجالسين؛ لأن أحداً لم يكن يعلم هل هو مجنون أم متيّم في الحب الإلهي، أم من الذين أجهدتهم الحياة، وأفقدتهم القدرة على المقاومة فاستسلم وهام على وجهه في الشوارع. كنت ألاحظه يرقب الرائحين والغادين ثم يطلق بين الحين والآخر صيحة يرددها بصوت جهوري: يا ضارباً في الحَشوم.. كنا نضحك ونتبادل النكات كلما سمعنا صيحته، ولم ينجح أحد في أن يفهم ما هو هذا الحشوم؟ وكيف يكون الضرب فيه، ثم وهو الأهم إلى مَن يوجِّه خطابه وماذا يريد من هذا الضارب في الحشوم؟ كان الرجل يرفض بإباء أي حاولة لإعطائه مالاً، ولم يكن يتردد في إهانة من يتجرَّأ ويفعلها، لكنه كان يتنازل أحياناً ويقبل أن يجلس معنا لتناول السندوتشات والشاي. ترددَت عن الرجل أقاويل كثيرة، فمن قائل إنه كان ناظر مدرسة محترماً وقف في وجه السلطة، فاعتقلوه وعذبوه حتى جُنَّ من قسوة التعذيب، ومن قائل بل هو جرَّاح مخ وأعصاب من النوابغ المعدودين وقد تعرَّض لتجربة قاسية بعد خيانة زوجته له وضبطها مع أحد تلاميذه، ومن قائل بل هو ممن لطمتهم كامب دافيد ومصالحة العدو وافتتاح سفارة لإسرائيل على نيل القاهرة، ومن وقتها لم يتمكَّن من استيعاب الحياة والتواؤم معها... لم نعرف حقيقته أبداً كما لم نعرف له اسماً، لكن ما لم أشكَّ فيه أن هذا الرجل كان في سابق الأيام متعلماً بل مثقفاً، ويمكن للراصد أن يلمح هذا من بعض أبيات الشعر التي كانت تفلت منه من وقت لآخر، رغم أن رجاءنا له بأن يعيد ما قال مرة أخرى كان يذهب أدراج الرياح.

ذات ليلة أقبل كالمعتاد واقترب من مجلسنا ووقف عند عمود جانبي، ثم أخذ ينظر للسائرين ويقترب منهم ثم يعود إلى عموده. ظلَّ يتقافز من رصيف إلى رصيف وهو يحدق في وجوه المارة بصورة أثارت فزعهم.. في هذه الليلة بدا غريباً على غرابته المألوفة، وكانت عيناه تلمعان ببريق مخيف. لم يكن يقول جديداً.. نفس صيحته الشهيرة "يا ضارباً في الحشوم"، لكنه كان يقولها وكأنه يستشعر هولاً عظيماً لا يحس به سواه. نظرت إليه فرأيت دموعه تنسال وتختفي داخل لحيته. لمحني أرمقه فبادلني نظرات راجية.. لم أفهم أي رجاء تحمِل ولم أتصور أنني بضغطي عليه أستطيع أن أظفر بشيء، لكنني شعرت بألمه وتمنَّيت لو أخفف عنه. ازداد انفعاله وتسارعت حركاته فصار يجري بسرعة قصوى عبر الطريق فيختفي ويغيب عن ناظرينا، ثم يعاود الظهور بنفس السرعة، ويلوذ بالعمود يقف إلى جواره يطالع الناس من جديد. ورغم أن جانباً من الجالسين كان يعرفه ولا يفزع من شكله، ورغم أن السياح الذين كانوا يفدون على المكان يومياً كانوا في العادة يقتربون منه ويأخذون معه الصور باعتباره من الأشكال الفولكلورية المميزة للمكان، إلا أنه في هذه الليلة أفزع السياح وجعلهم يجرون مبتعدين عنه؛ خوفاً من أن يلحق بهم الأذى.. كنت واثقاً من أنه لا يمكن أن يؤذي أحداً، ومع هذا فقد نهضت وعبرت إليه وسألته أن يأتي ليجلس معنا. فعلت هذا بعد أن لمحت الغضب في نفوس العاملين بالمقهى، وسمعت الجالسين حولي يتحدثون عن وجوب طلب

الشرطة للمعتوه الذي أخاف أطفالهم. لم يقبل أن يأتي معي. حاولت جذبه فتشبَّث بالأرض وقال لي: وما الفائدة؟ قلت له: قد يؤذونك. ضحك قائلاً: أنت رجل ذو مروءة.. قد يؤذونك أنت! قال هذا ثم التفت للخلف وأطلق صيحته الخالدة في الفضاء. قبل أن أتركه سألته: ألا تنوي أن تخبرني بمعني جملتك هذه؟ حدّق في عينيَّ وهو يفتح عينيه على اتساعهما على نحو أربكني، لكني أدركت أنه ينظر لي ولا يراني، أو لعله كان يرى ما لا يمكنني إدراكه، ثم قال في هدوء: سوف يخبرك الدهرُ من الأمرِ بما لم تعلمِ.

في تلك الليلة تلقَّى الدرويش صفعة هائلة من عامل المقهى؛ نتيجة استيائه من هروب الزبائن الذي توالى تركهم المكان؛ خوفاً من منظر الرجل. كان للصفعة دوي هائل، رأينا بعدها الدرويش يكوّر يده في غضب ويرفعها في الهواء؛ تهيئة لتسديد ضربة للقهوجي الذي انكمش على نفسه وتضاءل وهو يحس بفداحة ما ارتكب.. لا أدري لماذا أحسست في هذه اللحظة أنني أرى مشهداً من فيلم "هالك" أو الرجل الأخضر عندما كان البطل يتحوَّل من بشري إلى وحش، وشعرت بأن الدرويش سيستطيل ويتعملق ثم يهدم الجدران على رؤوس الجميع.. لكن للغرابة أبصرته يسحب يده قبل أن تسحق رأس من صفعه، ورأيت قسمات وجهه تتحوَّل للهدوء وهو يمسح على رأس القهوجي، ويساعده على النهوض من وضع القرفصاء الذي اتخذه بسبب الخوف.. انصرف بعدها في صمت ومضى رافضاً الرد على كل من حاول محادثته، وتابعناه يبتعد حتى ابتلعه الظلام.

في اليوم التالي وصلني الخبر بالعثور على جثة الدرويش في أحد الأزقة المجاورة. قيل أن لصوصاً هاجموه بغية سرقته.. لكني أعرف أنه مات بعد أن أراه الدهر من الأمر ما كان يجهل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هيبة المؤخرات

لا أحد يتحمَّس لإخبارك بالحقيقة إلا من أراد أن يتفرَّج عليك وأنت تتمزَّق من الألم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خَبز وهارمونيكا

يميل أغلب الناس إلى الشعور بأن الدنيا ظلمتهم ولم تعطهم ما كانوا يستحقون. بعضهم ينظر إلى قصة الحب التي عاشها أيام الجامعة ويشعر بالأسى؛ لأنها لم تكتمل ولم تُتوَّج بالزواج، والبعض الآخر يأسى على المهنة التي تمنَّى احترافها ثم حرمته الظروف والمجتمع منها.

وعلى الرغم من الكتابات والنصائح التي نبَّهت المحبين والعشاق إلى أن الحب الأول أو الحب المجهض الذي لم يؤدِ إلى الارتباط لم يكن بالضرورة ليفضي إلى السعادة، كما أن الشخص الذي تزوَّج من حبيبة القلب ربما كان تعيساً معها، وعلى استعداد لأن يعطيك إياها وفوقها بوسة أيضاً.. على الرغم من هذا كله فإن الناس لا تكفُّ عن استعادة الماضي والحنين إليه، مع تصوُّر أنَّ مخزناً للسعادة كان يوجد في أحد أركانه، غير أن الدنيا ألقت بنا إلى ركن آخر!

عن نفسي فإنني لست ممن يحنُّون إلى قصة حب قديمة أو يستعيدون ذكريات أيام خالية، بتصوُّر أنها كانت كفيلة بمنحنا قدراً من السعادة أكثر مما حصلنا عليه.. لكنني مع ذلك من أولئك الذين يتمنون لو عادت الأيام من جديد؛ حتى يعيشوا الحياة بطريقة أخرى، ويشقُّون لأنفسهم طريقاً مختلفاً عما اتخذوه بالفعل. من أجمل أحلامي التي تمنَّيتها عندما كنت صغيراً خالي الذهن عن اعتبارات اللياقة الاجتماعية وباقي الأفكار الخائبة أن أشتغل خبازاً.. كنت أمر بجوار مخبز ملاصق لبيتنا في الطفولة فأشم رائحة الخبز الطازج لحظة خروجه من الفرن. هذه الرائحة كانت تطيح بصوابي من فرط روعتها، وكانت تمدُّني بزادٍ من الأمل والتفاؤل طوال اليوم.. هل تصدِّقون أن رائحة الرغيف يمكن أن تصنع هذا بإنسان؟ صعب.. ولكنه حدث معي لدرجة أنني تمنيت لو أنهم استطاعوا تعبئة هذه الرائحة في زجاجات حتى أحمل زادي في جيبي، فأستخدمه عندما يداهمني الاكتئاب أو تناوشني الأفكار السوداء.. لذلك صار حلمي أن أعمل خبازاً يقدم للناس الأمل والسعادة ويمنح نفسه فرحة متجددة.. لكن مع الأسف لم تسمح الدنيا لي بذلك، ودفعت بي في سكك أخرى وجعلت مني أشياء كثيرة، كلها لا تأتي للقلب بالفرحة ولا للنفس بالطمأنينة.

ليس هذا هو الحلم الوحيد الذي ضاع، لكن لو عادت بي الأيام إلى زمن الصبا من جديد فقد لا أتخلي هذه المرة عن أن أكون عازفاً متجولاً بالشوارع أحمل قيثارتي معي وأجلس بها على الرصيف أنى شئت، ثم أبدأ بالعزف، وأنتقل من مدينة لمدينة ولا أستقر في مكان واحد.. وهذا اعتراف مني بأنني طالما حسدت هؤلاء الشباب الذين رأيتهم في أوروبا يعزفون في محطات المترو وفي الحدائق، ويعيشون حياة الطيور التي تزقزق وهي تنتقل من غصن لغصن ويمضون في حياة خالية من الملل والنفاق وارتداء ربطات العنق وانتظار العلاوة الدورية.. وبطبيعة الحال لست جاهلاً بطبيعة ما يلاقيه هؤلاء من شظف العيش، وتمنِي بعضهم أن يلتحق بوظيفة مستقرة لها مكتب ودخل ثابت، ولا أنا غافل عن أن بعضهم قد يغبطني ما أنا فيه، ويعرض بكل أريحية أن يبدِّل معي وأن يعطي كل منا للآخر ما يملكه.. أستطيع أن

أتفهم ذلك؛ لأنه من النادر أن يرضى أحد عن حاله.. ورغم ذلك فإنني لا أتردد لو بدأت الحياة من جديد في أن أفعلها بعد أن جربت الحياة التي يخضع فيها المرء لمقاييس الآخرين، ويفعل أشياء لا تسعده لمجرد أنها تأتي بالمال وبالمكانة.. لكن لكي أكون صادقاً أصارحكم بأنني لن أكون خبازاً أو عازف هارمونيكا هنا، في هذا الوطن الذي يضرب بالجزمة كل من أراد أن يؤكد نفسه أو أن يحيا سعيداً خارج وصاية المجتمع.. سوف يتعين أن أهاجر إلى الخارج حتى أستطيع أن أقف شامخاً في المخبز الذي أعمل به، أتبادل الضحكات والنكات مع الزبائن، أو أن أقف فخوراً على إحدى النواصي أعزف ألحاني بالقيثارة دون خوف من أن يظهر لي مُخبر يتقاسم معي رزقي أو يصفعني على قفايا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأسانسير

ذهب لزيارة عثمان صديقه بالبيت، فأدهشه وجود سقالات وأخشاب تسند السقف في مدخل العمارة، ووجد آثار الجبس والأسمنت تملأ المكان. اندهش لفكرة أن يكون البيت في حالة تنكيس نظراً لحداثة عمر البناية الذي لا يزيد على عشرين عاماً.

استقبله عثمان بالترحاب، فسأله عما يحدث خارج الشقة.. قال: أبداً.. إنهم يسندون الأسقف بهذه العمدان الخشبية ريثما يقومون بإصلاح الدَرَج الذي تهدّم بسبب غمره بالمياه أثناء الغسيل اليومي الذي يقومون به. تساءل في دهشة: هل يغسلون السلم كل يوم؟ أجاب عثمان: نعم لأن صاحب العمارة الذي يشاركنا السكنى بها لديه وسواس قهري يجعله يغسل يديه بالمطهرات كل خمس دقائق، وكذلك يغسل الفلوس الورقية والفضية قبل أن يضعها في جيبه، وهو صاحب اختراع غسل السلم كل يوم، وها هي عمارته على وشك الانهيار.. ولعله يظنُّ أن السبب أنه أهمل في غسلها!

اقترح على صديقه أن يستغنوا عن السلم ما داموا يعانون منه، ويقوموا بتركيب أسانسير في العمارة يريح السكان ويحفظ السلم من البلى. تعجَّب عثمان من الاقتراح وقال: إن السلم لم يبلَ بسبب الصعود والهبوط وقسوة الاستخدام، وإنما بسبب المياه التي تغمره طول الوقت، ولن يمنع تركيب أسانسير مالك البيت من الاستمرار في غسل السلم. قال الرجل: لكن ما رأيك في فكرة تركيب مصعد بالعمارة؟ ألا تراها فكرة تستحق الدراسة؟ أجابه في تردد: هي فكرة لم تخطر على بالي من قبل، خاصة أنني أسكن في أول بلكونة ولا حاجة بي لمصعد. لم ييأس الصديق، واستمر: ربما لا تحتاجه أنت، لكن فكر في سكان الدور السادس وضع نفسك مكانهم. نظر عثمان للرجل بشك وقال: معك حق هم يستحقون مصعداً.. ربنا يكون في عونهم.. لكن المشكلة أن أحداً من سكان الأدوار العليا لم يطرح فكرة تركيب مصعد من قبل. قال الرجل: ربما منعهم الحياء من طرح الفكرة.. قم أنت بطرحها واعفهم من الحرج..

تلفت عثمان حوله في ذهول وكأنما لا يدري بماذا يردُّ على صديقه الذي يتفوَّه اليوم بكلام غريب، ثم قال: أي حرج هذا الذي يمنع السكان من الحديث حول المصاعد.. هل حديث الأسانسيرات أصبح يثير الحرج؟ ثم إن حوش العمارة ليس به مكان يسمح بتركيب مصعد، والطريق الصاعد لأعلى تعترضه شقق السكان.. انسَ موضوع المصعد وحدثني في شيء آخر. قال الرجل: لم أكن أعلم أنك تغيرت إلى هذا الحد! أتتخلي عن جيرانك يا رجل لمجرد أنك تسكن في الطابق الأول ولا تحتاج للأسانسير؟ قال عثمان وهو لا يعرف هل يضحك أم يرسم الجدية: ما هذا التخريف يا رجل؟ أي جيران وأي أسانسير؟ إن هذه الفكرة هي فكرتك أنت وهي ليست مطروحة هنا بين السكان، وقد أخبرتك بعدم وجود مكان للمصعد. ردَّ الرجل بحدة: وهنا بالضبط يأتي دورك كأحد قادة التنوير وطلائع الفكر الثوري.. يمكنك أن تضرب بنفسك مثلاً بين السكان يؤكد جدارتك بتبوء منصب رئيس مجلس إدارة العمارة، وذلك بأن تؤثر السكان على نفسك، ولو أدى الأمر لنزع ملكية شقتك لغرض المنفعة العامة والقيام بتركيب أسانسير مكان صالة الشقة! هتف عثمان في

هلع: ماذا بك يا رجل.. هل أنت طبيعي؟ لقد كنت أسايرك على أمل أن ينتهي الهذر وتدخل في الجد، لكن يبدو أنك قد أصبت باختلال عقلي..

قال الرجل: وهل من يفكر في الناس يكون مختلاً؟ صرخ عثمان: أي تفكير في الناس يا ابن المجنونة؟ هل تريدني أن أمنحهم صالة الشقة لعمل أسانسير لا يريدونه ولم يفكروا فيه؟ قال الرجل: من قال إنهم لا يريدونه؟ إنهم يحتاجونه بشدة، ولكنهم لم يطرحوا الأمر بسبب الحياء كما أسلفت. قال عثمان: هل موضوع الحرج هذا كان بسبب نزع ملكية شقتي وتخزين الأسانسير بالصالة؟ أجاب: نعم. قال عثمان: وماذا عن بقية الشقة؟ هل يمكن أن أنام فيها أنا وأولادي أم أهبها لهم بعد إحضار ترابيزة بلياردو وجهازي بلاي استيشن لمتعة السكان؟

قال الرجل: المشكلة أن الثورة التي غيرتني ونزعت مني الأنانية لم تفعل معك نفس الشيء. قال عثمان: فلتمنحهم شقتك أنت إذن يا فالح ليستفيدوا منها. قال الرجل: إنهم لا يسكنون معي، لكن يسكنون معك أنت، ولو كانوا يحتاجوني لما ترددت في عمل أي شيء من أجل جيراني. قال عثمان: ثم من قال لك يا مخرف إنني أريد أن أكون رئيس مجلس إدارة العمارة.. إن هذا المنصب يعني أن أقوم بجمع فلوس الصيانة أول الشهر من سكان يماطلون في الدفع ثم التعامل مع الحارس والزبال ودفع فواتير الماء والكهرباء، وكل هذه الأشياء التي تحتاج لشخص "فاضي"، وقد كنت أهرب دائماً من هذا المنصب الذي يلف بالدور على السكان.. كما أن مسؤول العمارة الحالي لم يحصل على ما تسميه منصباً من خلال التنازل عن شقته.. وأخيراً ما معنى أن أفقد شقتي ثم أصبح مسؤولاً عن عمارة لا أسكن بها؟

قال الرجل: إن نقاءك الثوري أصبح محلَّ شك، وأنا حزين على صديقي الذي عاش عمره مناضلاً ثم أصبح يتهرب الآن من استحقاقات المرحلة. قال: أنا لم أزعم أنني مناضل ولا أعرف شيئاً عن استحقاقات المرحلة أيها المخرف. قال الرجل: ليس عندي وقت أضيعه معك بعد الآن.. أنا خارج لألحق موعد اجتماع المجلس. قال عثمان: هل أنت عضو بالمجلس؟ إن هذا يفسر كل شيء.. امضِ تصحبك السلامة يا بتاع الأسانسير يا وسخ!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القفز فوق المراحل

الدعارة شيء حقير ومنحط للغاية بإجماع آراء الأسوياء من البشر على مرِّ العصور، لكن يدهشني من يتحدَّث بأن تحريمها ورفضها عائد بالأساس إلى خطورتها على الذرية والخوف من اختلاط الأنساب؛ ذلك لأن هذا الموضوع تمَّ تداركه من زمان باختراع موانع الحمل التي يستخدمها الرجال والنساء على السواء.

خطورة الدعارة في رأيي هي أنها تُعدُّ خروجاً على الناموس الطبيعي للحياة الذي يفترض وجود مراحل لكل عمل أو نشاط حتى يكتمل ويصبح في أفضل صورة، فالعلاقة بين الرجل والمرأة تبدأ باللقاء والتعارف الذي ما إن يسفر عن انجذاب حتى ترى كلا منهما وقد تبدل حاله، فهام وسرح واعتلى أمواجِ الخيال يفكر في المحبوب، وقد يسهر الليل يناجيه في غيابه أو يكتب فيه شعراً، وبعد ذلك تكون فرحة اللقاء والرعشة التي يُحدثها تلامس اليدين، مع غياب الإحساس بالتعب أو بالألم في وجود الحبيب من خلال إفراز الجسم لمادة الإندورفين المريحة التي تُنسي العاشق مشاكله ومتاعبه التي يعود إليها من جديد بمجرد أن يفارق المحبوب. بعد ذلك تأتي مرحلة متطورة في العلاقة عن طريق الاندماج الكامل وممارسة الحب، يحدث ذلك في المجتمعات المختلفة كلٌّ على طريقته.. سواء في المجتمعات التي لا تقبل بالعلاقة بين الرجل والمرأة إلا في إطار الخطوبة والزواج؛ مثل مجتمعاتنا أو في المجتمعات الأخرى التي لا ترى مشكلة في الارتباط بحياة مشتركة دون زواج.. المهم أن المراحل المتدرِّجة يتم احترامها والانتقال من مرحلة إلى أخرى بسلاسة ويسر، فترتفع المشاعر والرغبات بالتدريج حتى ينتهي الأمر بالإشباع الكامل. أما الدعارة أو جريمة الاغتصاب فهما في واقع الأمر قفز على المراحل يخرِّب منظومة الحياة التي تمنح الناس الراحة والاطمئنان، ومحاولة لجني محصول لم نقم بزرعه أو للقطف في غير أوان الحصاد، ومن هنا كان رفض الناس واستنكارهم للداعرين والمغتصِبين.

مثال آخر للقفز فوق المراحل شهدته عندما كنت بصحبة صديق عند أحد الأطباء؛ لمعالجته من خلو بعض مساحات في رأسه من الشعر. كان الصديق منزعجاً بشدة لدرجة أنه طلب من الدكتور أن يمنحه علاجاً سريعاً يعيد الشعر إلى مكانه في أسرع وقت.. وأتذكر دهشة الطبيب الذي لم يفهم ماذا يقصد المريض، فلما أعاد عليه الرجاء بأن يعيد إليه شعره فيما لا يزيد على أسبوع قال له: أنت تريد بيولوجي جديدا مختلف عن الكائن في هذه الدنيا.. هناك دورة لا بد من احترامها في التعامل مع الحياة وإلا كانت النتائج كارثية! وهذا في ظني هو السر في أن الفاكهة التي يتم حقنها بالهرمونات لتنضج بسرعة تكون بلا طعم، ومن المؤكد أنها ضارة أيضاً؛ لأن عملية الحقن تعلو بالثمرة إلى ذروة لم تتأهب لها وتربك جزيئاتها المطمئنة فتعجز عن منحنا الطعم اللذيذ الذي نتوقعه منها، وهو نفس ما يحدث للرياضيين الذين يتعاطون المنشطات؛ بغية الحصول على لياقة الشياطين، ومحاولة القفز إلى تحقيق أرقام جديدة عن طريق قوة طارئة عناصرها غير أصيلة، وهو الأمر الذي

يعجِّل بالانهيار ويجلب الأمراض الغامضة لمن كنا نراهم يشبهون الوحوش، ونظنّ عضلاتهم مراكز للعافية فإذا هي أورام.. مصداقاً لقول المتنبي:

أعيذها نظرات منك صائبة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم!

وربما لهذا كله فقد نشأ عندي نفور طبيعي من استخدام الميكروويف الذي يراه الناس ثورة في عالم الطبخ؛ لأنه يستطيع طهو دجاجة كاملة في دقيقتين. ليس عندي دليل على أضرار هذا الاختراع، لكني بالعقل وبالفطرة لا أستسيغ فكرة الطهو فائق السرعة وأرى أن هناك ثمناً ما يتعيَّن دفعه لنفاد الصبر والعجلة في الطبخ، فليس هناك شيء في هذا الكون مجانياً.. بينما تمتعني غاية الإمتاع مسألة الوقوف بجوار أسياخ الكفتة والتهوية عليها بأناة وصبر، وتقليبها من حين لآخر أثناء عملية الشي على الفحم حتى تخرج بالسلامة من السيخ إلى الرغيف.

القفز فوق المراحل هو سبب الكوارث الطبيعية والجنون والسرطان والإيدز... وكل أشكال عقاب الطبيعة للخارجين عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كومــودو

منذ سنوات بعيدة كنت ومجموعة من أصدقائي الطلبة قد سافرنا في إجازة آخر العام الدراسي إلى النمسا؛ للعمل ببيع الجرائد على أرصفة فيينا. في ذلك الوقت ظللنا نضحك طويلاً على وضع مأساوي تعرَّض له أحد زملائنا الذي كان قد قدم إلى العاصمة النمساوية على متن الخطوط الجوية الصومالية، وبعد أن أمضى فترة دون أن يعثر على عمل قرر أن يعود إلى مصر، لكنه عندما بحث عن مكتب الصومالية بفيينا ليقوم بعمل الحجز لم يعثر له على أثر، فنصحه أولاد الحلال بالبحث عن وكيل لها يقوم بأعمالها، وهذا مألوف في دنيا السياحة والسفر، لكن اتضح أن الخطوط الصومالية أغلقت مكتبها وقامت بإلغاء الخط واختفت من النمسا تماماً. وجد صاحبنا نفسه في ورطة، إذ إنه يمتلك تذكرة عودة دفع ثمنها، ومع ذلك يعجز عن استخدامها؛ بسبب انسحاب شركة الطيران دون أن تحلّ مشكلة أصحاب التذاكر بأي من الحلول المعروفة، كأن تقوم بتدبير تحويل تذاكرهم على شركة أخرى، أو تعويضهم مادياً، أو أي حل آخر غير الاختفاء المفاجئ.

تذكَّرت هذه الواقعة عندما وجدتها تتكرر بصورة أخرى في مصر، مع واحدة من شركات السيارات التي أغرقت السوق منذ ثلاث سنوات بإعلانات ملأت الدنيا عن سيارة جديدة من سيارات الدفع الرباعي، صينية الصنع من ماركة "كومودو". ومما قالوه عن السيارة الجديدة أنها تتميز بموتور ياباني 2400 سي سي مأخوذ من شركة ميتسوبيشي.. وكان مما أغرى الناس بها أيضاً أن سعرها كان في حدود رُبع ثمن السيارات المماثلة من الماركات الأخرى، على الرغم من كونها تتمتع بكل الأساسيات والكماليات الموجودة في السيارات الكبيرة الفاخرة.

ليست المشكلة كما قد يتصوَّر البعض في أن الدعاية خدعت الناس، أو أنه اتضح أن السيارة رديئة أو سيئة.. أبداً.. فمعظم من حازوها لم تكن لهم شكاوى من أمور جوهرية بها، إنما المشكلة أن الشركة المستورِدة للسيارة بعد أن باعت عدداً لا بأس به منها أغلقت الفروع ورحلت دون كلمة وَداع للسادة الذين وثقوا بها واشتروا منتجاتها. ورحيل الشركة المستوردة ترتب عليه أن الوكيل الذي كان يقوم بالصيانة بالاتفاق معها توقَّف عن استقبال الزبائن، ونفض يده منهم، كما أدَّى ذلك أيضاً إلى أن قطع الغيار لم تعد موجودة؛ لأن وكيل السيارة الذي كان يبيعها اختفى في ظروف غامضة، ووكيل الصيانة أعلن عدم تمكّنه من إحضار قطع الغيار.. أما السادة الذين تورَّطوا في شراء السيارة الكومودو فقد وجدوا أنفسهم في أغرب موقف يمكن أن يواجهه صاحب سيارة تحتاج بطبيعة الحال إلى الصيانة الدورية وإلى قطع الغيار، فلجأوا إلى ميكانيكية الشوارع الذين قاموا بعمليات تلفيقية لتركيب قطع غيار غير مناسبة خاصة بماركات أخرى من السيارات، وهو الأمر الذي هوى بسعر السيارة إلى الحضيض.. وما زال السادة الذين شربوا المقلب لا يعرفون لمن يتوجَّهون في دولة فاشلة لا تستطيع أن تحمي مواطنيها من المغامرين الذين يأتون من كل مكان، ويتمكَّنون بالاشتراك مع اللصوص الكبار من افتتاح مشروعات وهمية، مع ما يصاحبها من حملات إعلانية باذخة تستدرج الناس للشراء، ثم بعد أن

يحققوا الهدف المتمثل في بضعة مئات الملايين يهربون بها دون أداء أي ضرائب، ودون الوفاء بحقوق المستهلكين، ودون أن يجد المواطن المصري أي مسؤول يوضِّح له ما العمل؟ أو أي طريق يسلك للحصول على حقه؟ أو من هم اللصوص الكبار الذين تواطأوا عليه وتقاسموا المال الحرام مع المستثمر الغادر؟

وإذا كنا زمان قد ضحكنا على زميلنا الطالب الذي اشترى تذكرته من شركة طيران أغلقت الفرع واختفت، فهل سنستمر في الضحك على الذين اشتروا السيارة الكومودو من النصابين؟ وهل بعد ذلك يقبل شعب مصر مسامحة الذين أعانوا مبارك على إجرامه، وسهَّلوا للمغامرين سبل النهب، وسمحوا لمصر بأن تنافس الصومال في أيهما الدولة الأكثر فشلاً؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سيدة النجاة

انتابتني دهشة بينما كنت أجلس في حالي لا ألوي على شيءٍ عندما قفز إلى ذهني دون مناسبة موقف حدث ونسيته بعد حدوثه مباشرة، ولم أتذكّره سوى الآن.

كنت قد تعرضت منذ عدة أسابيع إلى حادث عندما مالت سيارة طائشة نحو السيارة التي كنت أستقلها، مما اضطرَّ سيارتي إلى الانحراف الحادِّ والاصطدام العنيف بالرصيف. وقتها أحسست بأن زلزالاً قد رجَّ كياني، ثم ذهبت في غيبوبة لعدة دقائق. عندما بدأ الوعي التدريجي يعود انتبهتُ إلى صوتي يردِّد بوهن شديد وأنا ملقىً بأرضية السيارة: "آه يا امَّه.. تعالي لي يا امَّه".

مرَّ الأمر وانقضى، وأوشكتُ اليوم أن أنهي علاج فقرات العنق التي تضرَّرت من الحادث، ولا أدري لماذا تذكرت الآن فقط ما كنت أردده في اللحظات ما بين الغيبوبة والإفاقة، ولماذا كنت أطلب أمي بدلاً من أن أفكر في طلب الإسعاف؟ وماذا كانت والدتي تستطيع أن تفعل لو أنها لبّت النداء، وحضرت غير أن تستدعي الطبيب؟

تذكرت أيضاً حادثاً آخر وقع لي منذ سنوات بمدينة نيروبي عاصمة كينيا، عندما تعرَّضت لهجوم عنيف قام به مجموعة لصوص بهدف سرقتي بالإكراه، وعاد إلى ذهني تفاصيل الاعتداء، عندما تسلل خلفي أكثر من شخص بينما كنت أسير على الرصيف في ميدان "جومو كينياتا" الذي يشبه ميدان التحرير في اتساعه وازدحامه، وكانت الساعة حوالي الثامنة مساء والمكان مكتظ بالبشر.. فوجئت بقبضة جبارة تنقضُّ على عنقي من الخلف وترفعني لأعلى حتى ضاق تنفُّسي وبهتت الصور أمامي، وأنا أرفع يدي إلى أعلى التماساً للهواء، ثم إحساسي وأنا أصارع الموت بعدة أيادٍ تمتدُّ في اللحظة ذاتها إلى جيوبي كلها فتفرغها من محتوياتها بصورة بالغة العنف، أدت إلى تمزق البنطلون وشقّه طولياً من الجيب الخلفي حتى الأرض، وكذلك تهلهُل القميص وتحوُّله إلى خرقة ممزقة.. لم ينقذني من أيديهم سوى سقوطي بين أيديهم في إغماءة حفظت حياتي ومنعت عنقي من الكسر وقصبتي الهوائية من الانسحاق..

عندما بدأت الصور تعود وأنا نائم على ظهري على الأرض المبتلة بالمطر أتطلع إلى السحاب يمضي مسرعاً، سمعت نفسي أردد وأنا ما زلت في سكرات الحدث: "آه يا امَّه.. تعالي لي يا امَّه!"، ليست إذن هذه هي المرة الأولى التي أطلب فيها الحاجّة أمي وأنا في أشد لحظاتي ضعفاً واحتياجاً للعون، وإنما كل مرة تتلاشى فيها قدراتي وتنزوي ملكاتي وأوشك على الهلاك لا أجد سوى أمي أناديها لتنقذني، على الرغم من تنافي هذا مع العقل والمنطق.. ولكن أي عقل وأي منطق والناس من قديم الزمان تلوذ في الأزمات بالأولياء والقدِّيسين، الحقيقي منهم والزائف، فنرى من يتوسَّل بالسيد البدوي؛ لقضاء حاجته، ومن يقف على باب حفيد النبي متضرِّعاً: شيء لله يا حسين، ومن يستنجد برئيسة الديوان أم العواجز السيدة زينب... كذلك يقف أهل مصر راجين السيدة العذراء مريم أن تقف إلى جانبهم، فتزيح عنهم الهمَّ وتقيلهم من عثراتهم، ومنهم من يذهب إلى سانت تريز وإلى القديسة دميانة..

كما أن الضعف والحاجة كثيراً ما ألجأت الناس إلى الاستغاثة بالشيخ الحريتي والشيخ الكريشي والبوريشي والبيضاني وغيرهم، وبعض هؤلاء ليسوا سوى نصَّابين تم دفنهم في أضرحة نتيجة احتياج الناس إلى أي أحد يُضفون عليه قداسة حتى يستدعوه وقت الحاجة؛ ليدرأ عنهم الخطر ويهشّ عنهم الذئاب.

هذا ما يفعله الناس في الشرق والغرب.. في العالم المتقدم والعالم المتشخرم، فلماذا أستغرب في نفسي أن أستغيث بسيدة النجاة خاصتي، والقديسة الوحيدة التي أؤمن ببركاتها؟ وما الذي يدهشني أن أنسى كل الناس وأنادي واحدة من أولياء الله الصالحين جربتُ مراراً كراماتها ولمستُ تأثير شفاعتها، وعرفت ما الذي تستطيع تقديمه دون مقابل؟ إن دهشتي هي التي تستحق الدهشة؛ لدلالتها على حماقتي وجهلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا خلت اليدانِ

في قصيدة "إلهي" التي كتبها الأستاذ زكي الطويل، ولحَّنها ابنه الفنان كمال الطويل معانٍ جميلة لا يشعر بها إلا من ملك الإحساس والإيمان. تقول كلماتها:

إلهي ليس لي إلاك عوناً

فكن عوني على هذا الزمانِ

إلهي ليس لي إلاك ذخراً

فكن ذخري إذا خَلَت اليدانِ

إلهي ليس لي إلاك حصناً

فكن حصني إذا رامٍ رماني

إلهي ليس لي إلاك جاهاً

فكن جاهي إذا هاجٍ هجاني

إلهي أنت تعلم ما بنفسي

وتعلم ما يجيش به جَنَاني

فهبْ لي يا رحيم رضاً وعفواً

إذا ما زلَّ قلبي أو لساني

إلهي لـيس لي إلاك عــزاً

فكن عزي وكنْ حِصْن الأمانِ

كل الأبيات جميلة لكن يستوقفني منها لدرجة البكاء قول الشاعر: "إلهي ليس لي إلاك ذخراً، فكن ذخري إذا خَلَت اليدانِ". تذكرت هذا البيت عندما كنت أشاهد إحدى قنوات الحياة البرية التي تقدِّم عالم الحيوان والطير، وهي قنوات أحبُّها بشدة وأتابعها أكثر من غيرها.. كان البرنامج يعرض حياة أفاعي الكوبرا ذات اللدغة الفتاكة، ويقدِّم وسائلها في اصطياد الفرائس، وقدرتها على أن ترتفع لأعلى بضعة أمتار وتجري مسرعة حتى تصبح قادرة على لدغ أي حيوان مهما بلغت ضخامته وارتفاعه.

عرض البرنامج بالتصوير البطيء زخات السم التي تنفثها الأفعي في المرة الواحدة، والتي تكفي لقتل فيل، واستعرض زحفها على الأرض وتربُّصها بالفرائس وكذلك تسلقها الأشجار. عرض أيضاً كيف يقوم الثعبان بلدغ الأرنب البري ثم أرانا ببطء طريقة ابتلاع الأرنب عن طريق فتح الأفعي لفمها على اتساعه، وإدخال الأرنب خطوة بخطوة، بينما جسم الأفعي يتسع ويتمدد لاستقبال الفريسة التي تتقدَّم داخل جسم الثعبان حتى تستقر بكاملها داخله، ومن ثم تبدأ الأحماض والسوائل القوية في إذابته وهضمه.

ما استرعى انتباهي عند مشاهدة الفيلم هو الدقائق العشر التي استغرقها إدخال الأرنب في فم الثعبان حتى ابتلاعه بالكامل واختفاؤه تماماً في الجوف الرهيب.. هذه الدقائق العشر تمثل فترة عصيبة يمر بها الثعبان عند كل صيد؛ إذ إنه في أثنائها يكون في أضعف حالاته، ويكون أمنه الشخصي مكشوفاً تماماً، كما تكون حياته على المحك وبإمكان أي طفل صغير أن يقتله بحجر، كما أنه بإمكان أي نمس أو ثعلب أو حتى فأر أن ينهش الحية الرقطاء بينما فمها مشغول ومحشور به فريسة تجعلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها وعض أو نفث السم في وجه الطرف المهاجم.. وهذا ما عرضه الفيلم التسجيلي عندما رأينا أحد العناكب السامة الكبيرة يخرج من جحره ليتقدم من الكوبرا، وهي تحاول ابتلاع الأرنب وفمها (سلاحها الفتاك) معطل تماماً وخارج الخدمة..

في هذا الوقت تذكرت شطر الشعر القائل: "فكن ذخري إذا خلت اليدان".. كان هذا هو حال الكوبرا تماماً، فقد أعيتها الحيلة ولم يعد أمامها من سبيل للنجاة إلا أن يرحمها الله ويزودها بمدد من لدنه يحميها ويحفظ عليها حياتها.. ولعلها قد ناجت الله سبحانه وتعالي وسألته العون على هذا الزمان بعد أن ضاقت سبل النجاة في وجهها وتعطل مصنع السم في جوفها. وحتى تكتمل الحكمة الإلهية فقد رأينا أحد العناكب السامة ينقضُّ على رفيقه العنكب الذي كان بسبيله لقتل الثعبان ويصرعه أمامنا بعد أن دارت بينهما معركة قصيرة، كانت كفيلة بأن يفرغ الحنش من إنهاء ابتلاع فريسته والتفرُّغ للأعداء وهو وافر العدة وعلى أتم استعداد للمواجهة.

في ظني أن شيئاً يشبه هذا هو ما نتعرَّض له في مصر الآن بعد أن تكاثر علينا الأعداء في الداخل والخارج، وملأت الدماء الشوارع بفعل صبيان المخلوع الذين سعوا إلى نشر الفزع والرعب في المجتمع، ودأبوا على إشعال الحرائق يومياً، ومعهم كتائبهم من النعال الإعلامية التي ملأت العقول بتخاريف عن الثورة التي عطلت الإنتاج وطفّشت السياح ونشرت الفوضي وأحدثت الانفلات الأمني، مع أن الثورة بريئة من كل هذا. وقد وصلنا اليوم لوضع بات أمن شعب مصر فيه مكشوفاً، وقد خلت اليدان من وسائل للدفاع في وجه أعوان المخلوع في الداخل وأصدقائه في الخارج الذين يقومون بتمويل الخراب ويرفضون تمويل البناء.. بتنا اليوم بلا أسلحة في مواجهة السلطة والمعارضة والبلطجية الذين يقومون بالقتل ويتمتعون بالحماية القانونية من أهل الحكم الذين لم يعاقبوا قاتلاً واحداً من الذين سفكوا دماء عشرات الآلاف من الشباب المصري طوال الشهور الماضية.. واليوم لا يملك شعب مصر في مواجهة هؤلاء إلا أن يقف متضرعاً ناظراً إلى السماء ومردداً: "إلهي ليس لي إلاك ذخراً.. فكن ذخري إذا خلت اليدانِ".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطبيخ التركي.. والشموخ

كلما زُرْت تركيا وجدت فيها ما يلفت الانتباه ويدعو للإعجاب، وفي الحقيقة لا أستطيع أن أعجب بها مرة واحدة وينتهي الأمر، وإنما في كل خطوة أخطوها أجد فكرة تستحق التأمل وتدفع الكتابة.. على سبيل المثال لا يمكنني تجاهُل الطعام التركي الشهي الذي يحيط بالزائر من جميع الجهات في مطاعم كائنة بكل ركن من أركان المدن كبيرها وصغيرها والقرى صغيرها وأكثرها صغراً..

ما يلفت انتباه زائرٍ مثلي للطعام التركي هو أنه نفس الطبيخ الذي عشنا عمرنا كله بمصر لا نعرف سواه.. هو نفس طبيخ أمي وجدتي وأمك وجدتك.. تستطيع أن ترى في فاترينات المطاعم حلل الفاصوليا والبامية والبطاطس والمحشي بأنواعه، ويمكنك أن تطالع أسياخ الكفتة المشوية وصواني المكرونة بالبشاميل والكفتة بالبطاطس الغاطسة في الدمعة والأرز بالشعرية وكباب الحلة والكشك وشوربة العدس.. كل هذا الطبيخ الذي هو نفسه طبيخنا وأكلنا والذي أخذناه عن الأتراك عندما كنا جزءاً من الدولة العثمانية لحوالي أربعة قرون تجده معروضاً في أفخم مطاعم اسطنبول وسائر المدن التركية بكل فخر وشموخ وكبرياء.

ويهمني التأكيد على مسألة الشموخ والكبرياء هذه؛ لأننا في مصر نتعامل مع نفس المطبخ الذي يعد أكثر ثراء بعد أن أضفنا إليه الكشري والفول والملوخية والكوارع ولحمة الراس.. نتعامل معه بخجل حتى نكاد ننكره ونتبرَّأ منه.. ودليلي على هذا أنك لا تكاد تجد مطعماً محترماً يقدِّم الأصناف السالفة في أحياء القاهرة الراقية، وإنما تجد مطاعم البيتزا الإيطالية ومطاعم الفيليه والاستيك الفرنسي ومطاعم الوجبات السريعة الأمريكية، وأضيفت إليها مطاعم الكبسة والمكبوس والمندي والمضبي؛ لإرضاء الذوق الخليجي، مع التجاهل التام للمطبخ المصري بمأكولاته الشهية التي نجح الأتراك في جعلها عامل جذب سياحي يبهر الزوار من كل بلاد العالم..

ويستطيع الزائر لتركيا أن يلمس هذا عندما يرى السياح يقفون على الرصيف خارج أحد المطاعم لأخذ صور فوتوغرافية وأفلام فيديو للواجهة الزجاجية وخلفها الصواني الفواحة والطواجن ذات الضَوع والأواني التي يتصاعد منها البخار، وكلها لا تحتوي على سحر نجهله أو أصناف غابت عنا تركيبتها، وإنما هي عبارة عن طبيخ عادي من الذي تعرفه كل البيوت المصرية.

ويثير في نفسي الأسى تعاملنا باستهانة مع مطبخنا الجميل لدرجة أنك لا تجد مأكولاته إلا في الأحياء الشعبية والفقيرة، ولا تجد زبائنه إلا بين العمال والصنايعية الذين يتناولون غداءهم أثناء راحة الظهر خارج البيت. وفي الحقيقة إن الفرق بيننا وبين الأتراك في هذا الشأن يمكن إرجاعه إلى الثقة بالذات وبذور العظمة العثمانلي المزروعة في نفوس الناس العاديين هناك، وإدراكهم أن تراثهم الثقافي ومن بينه مطبخهم يستحق الاحتفاء والتباهي لا التواري والاختباء.. وربما أن لافتات شوارعهم التي تقتصر على اللغة التركية وصعوبة العثور على من يفهم الإنجليزية تفسِّر أن المواطن التركي هو الأصل والأساس، وأن التراث التركي والثقافة

والتعليم ورصف الطرق وتنظيف الشوارع والطبيخ الشهي إنما هي أشياء موجودة أصلاً لإسعاد المواطن التركي، ويمكن للسائح الأجنبي أن يحظى بميزة أو أكثر مما يخص الأتراك أثناء زيارته لبلادهم.

أما مصر في عصر "الوكسة" فيمكن لمن شاهد فيلم "الطريق إلى الهند" أن يفهم سيكولوجيتها. وهذا الفيلم على ما أظن هو آخر أفلام المخرج "ديفيد لين" الذي قدَّم عمر الشريف في لورانس العرب ودكتور زيفاجو وهو أيضاً مخرج "ابنة رايان" وغيره من أفلام الإنتاج الكبير.. بطل الفيلم طبيب هندي مرموق، متعلم على الطريقة الغربية في زمن الاحتلال البريطاني للهند، ينتمي بقلبه وروحه إلى الإنجليز،اكتسب منهم أصول التعامل الراقي وأصبح يتخذ أصدقاءه من بينهم، ويتعاطى معهم باعتباره واحداً منهم، لدرجة تشعرك بأنه يتمنَّى في لا وعيه لو تخلَّص من هنديته ليصير إنجليزياً مثلهم تماماً. المأساة تحدث عند أول احتكاك حقيقي ليكتشف الحقيقة المؤلمة وهي أنه لا يساوي عندهم شيئاً، فهو مجرَّد هندي يسهل التضحية به، وهذا طبعاً لأنهم يرونه لا يدانيهم في المستوى حتى لو كان طبيباً متميزاً يجيد الإنجليزية أفضل منهم! يفهم الطبيب متأخراً أن عزَّه وفخاره الحقيقي يكمن في انتمائه لأمته وانتسابه لبني وطنه الذين لن ينكروه، ولن يعاملوه بغلظة، ولن يلقى منهم سوى التقدير والاحترام.

نحن أيضاً نتصرَّف مع مطبخنا مثل الطبيب الهندي، وتنظر إليه الطبقة المتوسطة المتطلعة للصعود باعتباره أكل بلدي يقل في المستوى عن أكل المطاعم الراقية ولا يصحُّ تناوله خارج البيت، إنما ينبغي الذهاب للمطعم الصيني والمطعم المكسيكي.. ومن الغريب أن منهم من ينظر إلى محلات ومبي وكنتاكي وماكدونالدز باعتبارها مطاعم راقية، على الرغم من كونها مطاعم الفواعلية والغلابة وعمال التراحيل في الخارج! ولو كنا نمتلك الثقة بالنفس إذن لتخلَّصنا من حالة الانسحاق التي نحياها، وعرضنا طبيخنا في واجهات المحلات، وجعلنا منه عاملاً إضافياً من عوامل الجذب السياحي، إلى جانب آثار الفراعنة التي سرق الرئيس المخلوع معظمها، وشاركه سرقتها مسؤولون بالآثار يرتدون البرانيط مثل الطبيب الهندي المغفَّل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بطعم الزبدة الفلاحي

في أي ساعة من الليل والنهار تفتح التلفزيون على أي قناة يطالعك إعلان تتكرر إذاعته كل خمس دقائق، يروِّج لنوع من السمن الذي يُستخدم في طهو الطعام. ما أدهشني في الإعلان أنه يركِّز على الميزة الكبرى في نوع السمن الذي يعلنون عنه ألا وهي أنه بطعم ورائحة الزبدة الفلاحي!

طيب يا جماعة، إذا كانت كل ميزة منتجكم هذا أنه يشبه الزبدة الفلاحي فما الذي يدعوني لشرائه؟ الأوْلى أن أشتري المنتج الأصلي وهو الزبدة الفلاحي.. ما معنى أن تبيعني نباتاً يشبه الملوخية في حين أن الملوخية نفسها موجودة وفي الإمكان شراؤها! حتى لو كان فرق السعر هو الدافع فإنني لا أحبذ التقليد.

هل يا ترى ما أغرى هؤلاء الناس باعتماد فكرة الإعلان هو ما شاهدوه في انتخابات الرئاسة عندما قامت جماعة الإخوان المسلمين بالدفع بالدكتور محمد مرسي (المرشح الاحتياطي) كبديل للمهندس خيرت الشاطر الذي رفضت اللجنة العليا للانتخابات الرئاسية أوراق ترشُّحه؟ لقد رأينا خصوم الإخوان يصفون مرسي بأنه المرشح الاحتياطي أو "الاستبن" الذي لم يدفع به الإخوان منذ البداية؛ لعدم جدارته من وجهة نظرهم، ولكن اضطروا إليه اضطراراً.. فهل السمن الذي بطعم الزبدة الفلاحي هو المعادل الموضوعي لمرسي الذي هو بطعم خيرت الشاطر ومن ريحته؟

لقد كان الإخوان مضطرِّين للدفع بمرسي بعدما انتهى شهر العسل بينهم وبين المجلس العسكري، وبعدما لمسوا منه مؤشرات قد تفضي إلى حلِّ المجلس وخسارتهم للأغلبية البرلمانية، ومن ثم رفع يدهم عن كتابة الدستور، وهو الأمر الذي قد يُفقدهم كل شيء بعد الثمن الفادح الذي دفعوه للحصول على هذه المكاسب..

كان الثمن فادحاً بالفعل وانتقص من سمعتهم وتاريخهم عندما تخاذلوا عن نصرة المستضعفين الذين هبُّوا في مواجهة القمع والوحشية، وعندما أيَّدوا المجلس العسكري في كل قراراته، وفعلوا كل ما من شأنه أن يُخمد الثورة ويفرش لهم الأرض بالبقدونس حتى ينزلوا هم بأسياخ الكفتة، ويفوزوا بعنب الشام وبلح اليمن..

لكن يبدو أن الإخوان قد تعجَّلوا موسم الحصاد، وذلك قبل أن يقوموا بالغرس والزرع.. فوجئ الإخوان إذن بتهديدات تصل إليهم بحلِّ المجلس، فقرروا أن يدفعوا بمرشح رئاسي؛ تحسباً لأن يفقدوا مجلس الشعب إذا ما ارتأت السلطة السياسية حله.. وفي الحقيقة إن موضوع عدم دستورية انتخابات مجلس الشعب تصلح موضوعاً يدرَّس في التحايل السياسي واللعب بمقدرات الشعوب.. فمن قام بإقرار قانون انتخابات مجلس الشعب هو المجلس العسكري الذي كان يقوم بالتشريع في غياب البرلمان، وهو المسؤول عن العوار الذي يشوبه إذا كان معتوراً، ومع هذا فإنه هو الطرف الذي يهدد الإخوان بحلِّ المجلس بناء على عوار قانون انتخابهم الذي وضعه هو!

المهم أن الإخوان أصابهم التوجُّس ولم يعودوا يأمنون لترك الأمور في يد غيرهم، فنزلوا بخيرت الشاطر فرفضته لجنة الانتخابات، وعندها لم يجدوا بداً من الدفع بالدكتور مرسي كبديل لمرشحهم الأساسي.. ومن اللطيف أنك عندما تتحدَّث مع بعض كوادر الإخوان عن خطأ الدفع برئيس حزب الحرية والعدالة مع افتقاده الوهج والحضور أو ما يسمى بالكاريزما فإنهم يقرُّونك على ما تقول، ثم يتبعون هذا بالقول بأن الشخص لا يهمُّ، لكنهم يطرحون منهجاً في الحكم، ويرجون قبول الناس للمنهج بصرف النظر عن حامله!

عموماً نستطيع أن نعذر جماهير الإخوان عندما تتوجَّه يوم الثالث والعشرين من مايو 2012 إلى صناديق الانتخابات لتمنح أصواتها إلى مرشحهم الدكتور محمد مرسي رغم اعترافهم بأنه ليس منتهى المنى، وأنهم كانوا يأملون لو كان بمقدورهم انتخاب رجلهم الأساسي خيرت الشاطر.. لكن لا نستطيع أن نعذر الطهاة وربات البيوت عندما يُقبلون على السمن الذي برائحة الزبدة الفلاحي ويتركون الزبدة الأصلية التي -والحمد لله- لم تمنعها لجنة الانتخابات الرئاسية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شخصيات مهمة

في البلاد الديكتاتورية الغليظة التي تخاصمها الرحمة وتنأى عنها السماحة والرضى يمكن ملاحظة ظاهرة لافتة تتمثل في أن معظم البشر يكونون آلهة أو على الأقل ملوكاً في مكان عملهم؛ حيث يحتاجهم الناس ويطلبون منهم قضاء الحاجات. بياع الفول يمكن أن يكون أهم شخص في الوجود عندما نكون راغبين في شراء طبق بالزيت الحار وسط الجماهير المحتشدة حول العربة..

أعرف أساتذة جامعة وأطباء ومحامين يسعون جاهدين للتعرُّف على "عم أحمد" بائع الفول عند أرض الخربوطلي بالظاهر.. والحق أن حلاوة وطعامة الخلطة التي يضعها الرجل على الفول تجعل منه واحداً من العظماء في هذا السَّلك.. سَلك الفول والبصل، ومن الطبيعي أن يسعي الجميع للقرب من الرجل فلربما منحهم هذا القرب فرصة أخذ المطلوب بسهولة ودون تزاحم والتحام بالجماهير في الصباح الباكر. الغريب أن نفس هؤلاء الزبائن لا يتوقَّع أن يحفل أحدهم بـ"عم أحمد" لو صادفه في أي مكان بعيداً عن عربة الفول، لهذا فإنني لا أشعر بغضاضة في أن أرى الرجل يسوق الدلال ويقف في شموخ وهو يتوسَّط عربته التي تشكِّل مملكته الحقيقية التي سرعان ما تنفضُّ بعد نصبها بساعتين كل صباح!

ليس "عم أحمد" فقط هو الملك في مكانه، وإنما يمكن أن تلمح أيضاً "الولد أشرف".. ذلك الفتي ساقط الإعدادية الذي يعمل بعيادة الطبيب الكبير بالزمالك، والذي يلتفُّ حوله المرضى وأهليهم في تضرُّع ورجاء أن يرضى عنهم ويُدخلهم للدكتور بسرعة بدلاً من قضاء السهرة إلى ما بعد منتصف الليل بالعيادة. ويلاحَظ أن الناس في توددهم لـ"أشرف" يبلغون مستويات لا تصدَّق، فهم يدسُّون المال في يده فيتناوله منهم في لامبالاة ويلقيه في جيبه، ويتبسَّطون معه في الحديث كأنه صديق قديم ويسألونه عن الأهل والأقارب، كما يستمعون إلى آرائه الجاهلة في الأحداث السياسية، بل ويوافقونه عليها بحماس لافت..

ليس هذا فقط وإنما يجتمعون حوله ليروي لهم آخر الأسرار والفضائح التي وصلت إلى مسامعه عن الفنانين والسياسيين ولاعبي الكرة، كما يستلقون على أقفيتهم من الضحك على نكاته شديدة السماجة، ومنهم أيضاً من يأخذون منه وصفات طبية باعتباره قريباً من أهل المهنة. وبطبيعة الحال فإن معظم هؤلاء لو صادفوا "أشرف" بالنهار في أي مكان لا يحتاجون فيه إليه لما تجشَّموا حتى عناء إلقاء السلام عليه.. لذلك فإن الولد محقٌّ بالتأكيد في أن يتدلَّل ويشعر بنفسه في السويعات الذهبية التي يوفرها له الزمان مساء كل يوم!

وهناك أيضاً أي موظف بإدارة مرور تقف أمامه لتدفع فلوساً كثيرة على شكل ضرائب ودمغات وطوابع شرطة، ومع هذا فإنك تتحمَّل كآبة وجهه لو كان كئيباً، كما تتحمَّل استظرافه لو كان مستظرفاً، وتعمل على استرضائه ومصالحته دون أن تكون قد أخطأت في حقه.

وربما لهذه الأسباب وأسباب أخرى فإنني لا أميل إلى زيارة الأصدقاء في أماكن عملهم.. التجربة علمتني أن الزيارة في مكان العمل قد تفسد الصداقة؛ لأنه وكما أسلفت فإن هناك من الناس من يكونون ملوكاً وآلهة في مكان عملهم، وربما كان صديقك يعيش هذا الدور في مكان عمله، ويفرح بتأليه الناس ومداهنتهم حتى تنقضي المصلحة، وزيارتك له في هذه الحالة تُحرجه وقد يفجِّر الصداقة بينكما.. وربما أيضاً يكون الشخص الذي تزوره مشغولاً بشكل حقيقي في أداء العمل فلا يتمكَّن من الترحيب بك واستضافتك بالشكل الذي تتوقعه، فيترك ذلك في نفسك غصَّة، وربما لا يكون مشغولاً لكن يتشاغل ويتصنَّع الأهمية أمامك ويجدها فرصة ليهملك ويردَّ لك الصاع الذي تمنحه إياه على القهوة كل ليلة..

لهذا أنصحك بألا تزور أحداً أثناء جلوسه على كرسي العرش، ما لم تكن الحاجة إليه ضرورية، وانتظر حتى تلقاه بعيداً عن أدوات عرشه سواء كانت قِدرة الفول أو دفتر تذاكر السينما أو أرقام الدور عند الطبيب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هيبة المؤخرات

جلس الملك كاتيان ممسكاً رأسه بين يديه، ثم التفت ونادى على الوزير الذي حضر في الحال ومثل بين يديه:

لبيك يا مولاي.

اسمع يا وزير.. لقد رأيت في منامي حلماً مفزعاً لم ينقذني منه إلا وقوعي من فوق السرير بعد أن نقرني ذلك الطائر اللعين..

قاطعه الوزير: عفواً يا مولاي.. هلا قصصت عليَّ الحلم من البداية؛ حتى أشترك معكم في محاولة فهمه.

قال الملك: رأيت أنني كنت أجلس على مؤخرتي الوثيرة في حديقة القصر أنحر في الجمل المشوي الممدد أمامي، وأتناول منه هراديم مُهردمة، عندما اكتست السماء فجأة بلون أسود بعد أن حجب الضياء طائر عملاق رفرف فوق القصر، ودار دورتين وهو ينظر نحوي بعينين مملؤتين بالغضب.. للوهلة الأولى تصوَّرت أنه يقصد الجمل المشوي، ولم أشأ أن أترك له إفطاري اللذيذ، فملت بحركة تلقائية لأصدَّه عن الطعام، فلم أشعر إلا والطائر ابن الحرام ينقضُّ من علٍ وينقر مؤخرتي التي أعتز بها، ويصعد وفي منقاره منها قطعة سمينة.

صاح الوزير: يا إلهي.. إنه لحلم مريع يا مولاي.

قال الملك: ويبدو أنني كنت أصارع الهواء من أجل دفع الطائر الشرير لدرجة أنْ سقطتُ من فوق السرير، ومن وقتها يا وزير وأنا مشتَّت العقل والوجدان لا أقوى على التفكير.

قال الوزير: لست أرى والأمر جلل وفادح إلا استدعاء أصدقاء جلالتكم من حكام المناطق المجاورة الذين يجمعكم وإياهم وحدة المصير والأهداف.

في المساء أقبل على الملك في ديوانه أصدقاؤه وحلفاؤه الأعزاء السلطان فنكوس والأمير كاشور والشيخ حبظلم.. قدَّموا لجلالته التحيات الواجبة وجلسوا حوله. افتتح السلطان الكلام وقال وهو يقضم فخذ غزال مشوي: لقد آلمنا في السلطنة ما حدث لمؤخرتكم السامية خاصة ونحن نعلم أنك قضيت في تربيتها وتسمينها ردحاً من الزمن حتى صارت نزهة للناظرين.. ونحن في السلطنة يا صاحب الجلالة نحترم المؤخرات الفارهة، ولعلك تعلم أن شعبي وقد أدرك دائي وعرف ميولي أصبح لا يتحدَّث عن المؤخرات ولا يتعاطى معها إلا بكل التقدير واللين الذي علَّمتهم إياه. قال الملك: إني أقدِّر شعورك يا عظمة السلطان، لكني ما زلت جاهلاً لمغزى الحلم الفظيع.. هل تتصوَّر وجود من يتربَّص بي؟ وهنا انبرى الأمير بعد أن وضع جانباً حلة الأرز التي كانت في حجره وقال: تقصد يتربَّص بنا يا صاحب الجلالة.. بنا وليس بك وحدك؛ لأن ما يصيب مملكتك يصيبنا، والطائر الذي اقتطع من مؤخرتكم فكأنما حزَّ من مؤخراتنا أيضاً.. نحن نرى أن هناك مؤامرة لها أطراف عديدة والغرض في النهاية هو تسديد ضربة موجعة إلى منظومة القيم التي عشنا عليها

دهوراً والتي تعلي من قيمة المؤخرة، ولئن تجرَّأ طائر على قطف قطعة منها فمن يدري ماذا يفعل في المرة القادمة.

وهنا نظر الملك نحو الشيخ حبظلم وقال: لم نسمع صوتك يا شيخ، فلعلك تدَّخر رأياً سديداً فيما حدث. نظر الشيخ إلى الحضور ثم تناول سلطانية مملوءة بالخشاف، وبلل فيها ورك الديك الرومي قبل أن يعقره ويلقي خلفه بالخشاف ثم قال: هل تظنون ما حدث يقع بعيداً عما يخطط له الحاكم الملعون بزرميط كهرمان الذي يبغي نشر أفكاره ومبادئه اللعينة في أوساط شعوبنا، وعلى رأسها وجوب ستر المؤخرة؟ لقد أتاني رئيس مخابراتي بمعلومات مؤكدة عما يضمره هذا الشيطان، وعلينا أن نتخذ الليلة موقفاً حاسماً قبل أن يتحقَّق الحلم وتضيع هيبة المؤخرات.

قال الملك: أنا أعلم خطورة كهرمان، ولهذا أقترح أن ندعم جمعنا هذا ونضمَّ إليه بعضاً من أكثر الجيران شراسة وبُغضاً للرحمة فنأتي بالكوموندورف من المشرق ونجعله واحداً منا، كما يمكن أن نضمَّ الإسبيدال من المغرب أيضاً؛ فلديه جنود رباهم الشيطان في حجره. لم يبدُ على الجالسين أنهم استراحوا للفكرة، وقال الأمير كاشور: أولاً أنا لا أطمئن لحضرة الكوموندورف؛ لأنه تربية مَرَة ولا يمكن الركون لوعوده، فضلاً عن أن شعبه الفقير سيطمع فينا وقد لا يرعى في أدبارنا إلاً ولا ذمة، هذا عدا عن أن الإسبيدال تقع محميته في قارة بعيدة وهو نفسه غير مهتم بنا، بل وينظر إلينا باحتقار!

ترك السلطان فنكوس رأس الغزال الغارقة في السمن وتطلَّع إلى الجمع بعينين زائغتين من كثرة الشراب وقال: لا حاجة بنا إلى غرباء، لكن ينبغي أن نحمي مؤخراتنا من الطيور الجارحة باستخدام سلاح المال.. يجب أن نضخَّ في شرايين الجيران أموالاً كثيرة تكفيهم ذل الحاجة وتجعلهم ينظرون إلينا بعين الامتنان لا بعين الحسد، وبهذا يكفون عن تصدير الأفكار الشاذة إلينا ومحاولة إلحاقنا بالدول التي تغطي المؤخرات.

انتفض الملك فأوقع وعاء قمر الدين على الأرض وقال في هلع: كله إلا منحهم المال يا سادة يا كرام، بل يجب أن نجوِّعهم حتى يكفروا بالدين الجديد ويعودوا إلى عبادة آلهتنا ويكفوا عن ستر المؤخرات.. قال هذا وأطلق ضحكة مخيفة في الفضاء، ثم توقف فجأة وقال: لقد تشعَّب بنا الحديث فخرجنا عن الأمر الذي استدعيتكم من أجله.. ما تفسيركم للحلم الذي أفزعني؟ قال الشيخ: لنبدأ الليلة من الأول.. أحضروا الراقصات ومدُّوا الأسمطة حتى نعاود التفكير من جديد في الخطب الجلل!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أبو النجف

حاول تحب نفسك.. وتدِّيها بُوسة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مشروع تخرّج

عندما كنا ندرس بكلية الإعلام كان التدريب العملي بقسم الإذاعة والتلفزيون يتضمَّن قيام الطلبة بعمل فيلم وثائقي يتولون فيه بأنفسهم عمل الاسكربت والقيام بالتصوير والمونتاج والإخراج، وكذلك التدرُّب على تقديم برنامج وكتابة السيناريو الخاص به، مع تحضير الأسئلة وضبط الكاميرا والإضاءة، وكل ما يلزم لإكساب الطلبة أساسيات العمل الإعلامي المرئي.

تذكرت ذلك عندما اتصل بي عدد من الطلبة والطالبات بكلية الإعلام يشتركون في مشروع واحد للتخرج، وطلبوا مني أن أكون ضيفهم في عمل يقومون به حول تجربتي في العمل الإعلامي والكتابة الصحفية والروائية.. لا أنكر أنني تحمست لهم واستعادت ذاكرتي أيام كنت في سنهم أقوم بمشروع مماثل مع زملائي، ورحَّبت على الفور.. شعرت بالدهشة عندما سألوني عن المكان الذي أقترحه للتصوير؛ إذ إن الإعداد الجيد يقتضي أن يكونوا قد حددوا هذه الأشياء، وما إذا كان التصوير سيكون داخلياً أم خارجياً، ليلياً أم نهارياً.. لكن قلل من دهشتي أنهم أخبروني أن الأمور على زمنهم لم تعد مثلما كانت على أيامي، وأن التسهيلات التي تقدَّم لهم تكاد تكون صفراً. قلت لهم: حددوا مكان التصوير وسأحضر في الموعد الذي نتفق عليه. سألتني فتاة من الفريق على استحياء إذا كنت أسمح لهم بأن يحضروا إلى منزلي ليقوموا بالتصوير فيه!

وعلى الرغم من التجارب السيئة التي أحملها لبرامج تلفزيونية تم تسجيلها معي بالبيت بزعم رغبتهم في التعرُّف وتعريف المشاهد على الأماكن التي أجلس بها وطقوسي الخاصة في الكتابة وأشياء من هذا القبيل.. أقول على الرغم من تجاربي السيئة؛ حيث كانوا يعيثون في المنزل إرباكاً، ويقومون بنقل العفش من مواضعه، إلا أنني قد وافقت من أجل مساعدة زملائي الصغار الذين يبدأون المشوار الذي قطعته قبلهم بسنين.

كان فريق العمل مشكلاً من معيدة بالقسم وخمسة طلبة، ولهذا فقد كانت دهشتي شديدة عندما رأيت جيشاً جراراً يطرق بابي، مؤلفاً مما يزيد على 20 فرداً ومعهم الكاميرات والحوامل ومعدات الإضاءة وشحن البطاريات.. فريق متكامل ممن يقومون بعمل المسلسلات التلفزيونية.. أخذت الطلبة جانباً وسألتهم عما يكون هؤلاء الناس فأخبروني بأن هؤلاء هم الفنيون العاملون بالشركة التي لجأوا إليها لتنفِّذ لهم مشروع التخرج! قلت في هلع حقيقي: ماذا؟ فنيون وشركة تنفِّذ لكم مشروع التخرج؟ ما هذا الهراء الذي تتحدثون به؟ لقد كان التدريب على أيامنا هو أن نقوم نحن بالعمل لا أن يقوم به محترفون مستأجرون ثم نضع أسماءنا عليه.. لاذوا بالصمت فسألت وأنا في قمة الأسى: وهل يعرف أساتذتكم ما تفعلونه؟ فكان ردهم بالإيجاب، بل زادوا بأن بعض أساتذتهم شركاء في هذه الشركات التي تنفذ لهم الأعمال لقاء أجر باهظ! لا أخفيكم أنني شعرت بغم عظيم، وفقدت رغبتي تماماً في أن أكون ضيفاً على مشروعهم الزائف هذا الذي سيأخذون عليه درجات دون أن يكونوا قد قاموا بعمل أي شيء فيه بخلاف إلقاء أسئلة ساذجة على الضيف المغفَّل!

وكان مما ضاعف نقمتي أن الجيش الجرار الذي أحضروه معهم قد أخذ أفراده في الانتشار في البيت دون إحم ولا دستور، وأخذوا يفتحون الأبواب ويدخلون الغرف دون استئذان، ويتعاملون مع المكان على أنه بلاتوه مفتوح لهم يتصرَّفون فيه كما يريدون.

كما لاحظت واحداً منهم شديد الاعتداد بالنفس رجَّحْتُ أنه المخرج يلقي للآخرين أوامر متأففة، وقد أمر سيادته بإخراج أحد صالونات المنزل وإبعاده حتى تكون زوايا التصوير مناسبة لرؤيته.. ظللت أتابعهم في ذهول لعدة دقائق، ثم فاجأت نفسي في لحظة وصرخت فيهم بأعلى صوتي: ستوب.. ما هذا الذي تفعلونه في بيتي؟ اخرجوا بره جميعاً.. لا أريدكم هنا وليذهب برنامجكم إلى الجحيم..

ران على المكان صمت عميق، ووجدت الطلبة أصحاب المشروع يأخذون المخرج وفريقه للخارج ويبعدونهم عن ناظري، ثم يعودون إليَّ بعد قليل راجين مني في ضراعة ألا أضيع عليهم المشروع والفلوس التي دفعوها من مصروفهم للشركة، وأن أقبل لأجل خاطرهم أن نقوم بالتصوير.. ولم تنسَ المعيدة التي تشرف على عمل الطلبة أن تذكر لي أن هذه الأيام تختلف عن أيامي بقيمها وأهدافها وأساليبها، مما يستوجب أن أكون أكثر تفهُّماً لظروف جيل لم يحصل على تعليم ذي قيمة كما لم يجد من يقتدي بهم من الأساتذة والمعلمين. شعرت بالإشفاق نحوهم رغم ضيقي منهم وحنقي على الأخ ديسيكا المخرج التي تصوَّر نفسه في حديقة الأندلس! وأخذ يتجول في بيتي ويعطي أهل البيت أوامر بتحريك أرائك وإزاحة طاولات ورفع تابلوهات..

وافقت على مضض أن يتم التصوير لكن في الروف فوق سطوح البيت، وإلا فليرحلوا غير مأسوف عليهم.. وافق الطلبة في سعادة ورضخ الأخ برتولوتشي وعيناه تنطقان بالغضب، فصعدنا إلى فوق وتركتهم يضبطون ويجهزون ويضيئون ويطفئون، وعندما دارت الكاميرا وبدأ التصوير وجدتني فاقداً للحماس، ولقيت إجاباتي فاترة لا تحمل أياً مما كنت أتمنَّى أن أقوله لهم، ذلك أنني أدركت أن الفيلم كله هندي، وأنني أقوم فيه بدور أميتاب باتشان!

بعد انصرافهم لم أتمالك نفسي من لعن أيام وسنين مبارك التعيسة التي أوصلت قطارنا لمحطة الخراب الشامل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المدير.. ابن الكئيبة!

الابتسامة في وجوه الناس صدقة، ولكن الكثيرين لا يحسنون التصدُّق خاصة الرؤساء والمديرون في الأعمال المختلفة، فهم يظنون أن الجهامة والسحنة المقلوبة من شأنهما أن يبعثا على الاحترام وعلى بثِّ الرهبة في نفوس الموظفين، وأن هذا من شأنه أن يدفع لإنجاز العمل ويحفظ للمدير مهابته.

في الحياة العملية التي عشتها رأيت وفهمت تأثير تكشيرة المدير على حياة الموظفين، وأدركت أن هناك من المديرين أناساً طيبين حقاً لكنهم لا يتمتعون بالوعي ولا الإدراك الذي يجعلهم يجنِّبون موظفيهم الصغار الكثير من العذاب لو أنهم فقط ابتسموا في وجوههم.. وكثيراً ما ترد على خاطري قصة تشيكوف الرائعة "وفاة موظف" كلما شاهدت رئيساً في العمل يستغلُّ سلطاته وصلاحياته وقدرته على المنح والمنع في إهانة موظفيه وتكديرهم وكسر نفوسهم، وهو ضامن أن أحداً لن يفتح فمه بكلمة تأفف أو اعتراض.. صحيح أن المدير في قصة تشيكوف لم يفعل شيئاً من هذا مع الموظف بطل القصة، ولكن هذا لم يطمئن أبداً..

وملخص القصة أن موظفاً كان يجلس بالصف الثاني بالمسرح يشاهد إحدى المسرحيات عندما أطلق عطسة مفاجأة، ثم خُيِّل إليه أن الجنرال الجالس أمامه قد أخرج منديله لمسح رزازاً أصاب صلعته.. يحكي تشيكوف أن الموظف مال على الجنرال معتذراً بأنه لم يقصد ما فعل، فقال له الجنرال لا عليك.. لكن الموظف لم يهدأ فذهب إليه في الاستراحة واعتذر ثانية بأن العطسة فعل لا إرادي وأنه لا يقصد أي إهانة، وعندئذ نظر إليه الجنرال في دهشة ثم أشاح عنه.. في اليوم التالي ذهب إلى الجنرال في مكتبه؛ لأنه خشي عاقبة غضبه بعد أن ظنَّ أنه لن يسامحه وكرَّر اعتذاره، وهنا تعجَّب الجنرال وقال: يا للتفاهة.. ماذا تريد؟ ازدادت حالة الموظف سوءاً، وظنَّ أن الجنرال لن يرحمه، لهذا فقد عاود الزيارة مرة أخرى، وأخذ يشرح للرجل ملابسات العطسة التي خرجت دون قصد منه، وكرر اعتذاره وأسفه.. وهنا زأر الجنرال وقد أربد وارتعد قائلاً: اخرج من هنا. امتقع وجه الموظف وأحسَّ بشيء يتمزق في بطنه، ثم تراجع إلى الباب وهو لا يرى ولا يسمع شيئاً، وخرج إلى الشارع وهو يجرجر ساقيه، وعندما وصل آلياً إلى المنزل استلقى على الكنبة دون أن يخلع جاكتته.. ومات.

إلى هذا الحد يمكن أن تصل الأمور، وفي ظني ليست المسألة متعلقةً ببلاد غنية أو بلاد فقيرة، عالم متقدم أو عالم ثالث، فمشاعر الناس ورهافتهم واحدة في كل مكان، والموظف الصغير في الغالب يكون في حالة هشاشة وانكشاف نفسي تجعل جرحه من أسهل ما يكون من جانب رؤسائه الكبار.. كنت زمان أشعر بغضب عارم من الزملاء عندما أذهب إلى العمل في الصباح وأجدهم يتحدثون عن أن المدير اليوم في حالة مزاجية غير طيبة، ولهذا يحسُن ألا يقترب منه أحد! كنت أرى أن عمل حساب لمزاج سيادته هو في حدِّ ذاته أمر مهين؛ لأن ما يربطنا به هو العمل ولكل منا دوره واختصاصه فيه، ولا يفضُل أحدٌ أحداً في هذا الشأن إلا بمقدار إجادته لما يؤديه.

وأذكر أنني كنت أنفعل عليهم وأنا أذكّرهم بأن كل منا يأتي إلى العمل وهو محمَّل بالهموم والمشاكل، فمنا مَن يمر بضائقة مالية، ومن لديه طفل مريض، ومن يتعذَّب في الحب، ولكننا لا نجعل شيئاً من هذا سبباً للتجهُّم في وجه سيادته أو معاملته على نحو فظ. لكن من الواضح أن الكثيرين لم يكونوا يشاطرونني الرأي، وكانوا يرون مزاج سيادة المدير مسألة في غاية الأهمية، وأنك إذا تجاهلت هذه الحقيقة تكون من الخاسرين. ولقد خسرت بالفعل فرصاً كنت جديراً بها بسبب أنني لم أكن أقيم وزناً لصاحب السيادة، ولا كنت أسمح لمزاجه المعتلّ أن يكون ذريعة لتوبيخي ومعاملتي بغلظة.

وأذكر أنني صادفت مديراً كان الأسوأ من بين الأوغاد الذين لقيتهم، فقد كانت سحنته كئيبة بطبعها دون أن يبذل أي جهد، وكانت تزداد انقباضاً حين يغضب، ولهذا فقد أسميته "ابن الكئيبة".. هذا الرجل تسبَّب في إصابة زميل بأزمة قلبية كادت تقضي عليه؛ بسبب أن هذا الزميل قال له "صباح الخير" فلم يرد. ظلّ الزميل يسألنا ويسأل نفسه طوال اليوم: ماذا فعلتُ؟ وما عساه يكون قد أغضبه مني؟ وهل يؤثر هذا الغضب على الترقية القادمة فتتأخر، وهل يكون سبباً في إلغاء المأمورية التي حاربت لأجل الفوز بها؟ وعندما ذهب إلى البيت نقل تعاسته معه فتشاجر مع زوجته، وقام بتعنيف طفليه دون داعٍ، ثم انتهى اليوم بسقوطه مغشياً عليه، ودخل المستشفى، فمكث بها أسبوعين للعلاج. لأجل هذا فإنني حين صرت مديراً وتحت يدي موظفون فقد كنت عارفاً تماماً لقيمة الابتسامة، وكنت حريصاً ما استطعت على ألا أجعل أحداً يذهب إلى البيت حزيناً بسببي؛ لأنني أدركت أن العمل يمكن أن يسير بشكل طيب دون الحاجة لاستخدام آليات الترويع البدائية التي يظنُّ الجبناء أنها تصنع لهم هيبة وتمنحهم أهمية، ووعيت أن الحياة مؤلمة بما فيه الكفاية، ولا تحتاج أن نضيف للناس فيها أحزاناً فوق أحزانهم.. والحمد لله أنني ابتعدت تماماً عن هذا العالم الكاسر للقلوب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخير.. وسوء العاقبة

منذ سنوات حدث أنني كنت أسير بالسيارة عندما شاهدت على الرصيف القريب شاباً يسيل الدم من رأسه يسير خطوات ثم يسقط على الأرض، وينهض محاولاً السير ثم لا لا يلبث أن يسقط من جديد.. توقفت بالسيارة إلى جانب الطريق وبصورة آلية دون تفكير نزلت مسرعاً، واتجهت للفتى الذي راح في غيبوبة، وما زال الدم ينزف من رأسه.. نهض كذلك رجل أشيب كان يجلس على كرسي على الرصيف خارج دكانه. قلت له: ما الذي حدث؟ هل شاهدت من أصاب الفتى؟ أجاب: كنت أجلس فشاهدته يتخبَّط على الرصيف ثم يسقط أمامي ولم أعرف من فعل به هذا. قلت: ماذا نفعل الآن؟ قال: لا بد من نقله للمستشفى؛ لأننا لو طلبنا الإسعاف لمات قبل وصولهم.

ساعدني الرجل ومعه بعض المارة على حمل الجريح ووضعوه في سيارتي على المقعد الخلفي. طلبت من الرجل أن يأتي معي للمستشفى حتى يكون شاهداً على ما حدث وحتى لا يظنوا أنني أصبته بالسيارة أو أن لي دخلاً بما أصابه على أي نحو. تعلل الرجل بأنه ينتظر بضاعة ستصله بين لحظة وأخرى، لكنه طمأنني بأنه جاهز للشهادة معي إن احتجتها. شعرت بالقلق؛ لأنني أعلم أن السلطة تشجُّع على النذالة بإجراءاتها التعسفية بحق من يحمل مصاباً ويذهب به للمستشفى. حاولت أن آخذ معي أحداً من الجمع الذي أحاط بنا للفرجة على ما يحدث، لكنهم اعتذروا في نذالة جماعية مذهلة..

زاد توتري وأحسست بأنني تهورت بوضع المصاب في سيارتي، لكن خوفي على حياته حسم ترددي وجعلني أتوكل على الله وأنطلق بالسيارة بأقصى سرعة، وأنا أردد أدعية إلى الله بأن ينجي الفتى، ولا يدخلني في مشاكل يتعرَّض لها دائماً من يقدم على فعل الخير! على بوابة المستشفى واجهتني مشكلة؛ لأنهم رفضوا إدخالي بالسيارة وطلبوا مني إنزال المصاب وحمله حتى قسم الاستقبال! صرخت فيهم وأنا أكاد أجنُّ بأن المصاب حالته حرجة ولا أستطيع حمله، وطلبت منهم أن يحضروا محفة مما ينقل عليها المصابون، لكنهم تعللوا في رقاعة بأنهم موظفو أمن ولا علاقة لهم بنقل المرضى!

اضطررت لأن أدفع لهم حتى يفتحوا البوابة. بعد أن أدخلناه إلى قسم الاستقبال وجدت أن مهمتي انتهت، فأعطيت القوم ظهري وهممت بالانصراف، لكن موظف الأمن الذي أخذ مني الرشوة طلب مني البقاء وأشار إلى الأطباء بأنَّ هذا هو الذي أتى بالحالة. وفي الحقيقة لم أجد أطباء لكن وجدت مخبرين كل همهم هو أن يعرفوا صلتي بالشاب الممدد بين أيديهم.. شرحت لهم علاقتي بالموضوع، لكنهم صمُّوا آذانهم، وتم إبلاغ مدير المستشفى تليفونياً ثم أخبروني أن الشرطة في الطريق.

كرَّرت على أمين الشرطة ما حدث، ونفيت معرفتي بالمصاب.. كان الأمين متفاهماً، بيد أنه شرح لي أن هناك إجراءات في مثل هذه الحالات لا يمكن تجاوزها، وطلب مني أن أدعو الله ألا يموت الفتى حتى يمكنه أن يشهد لصالحي، ويؤكد لهم أنني لست الفاعل.. مادت الدنيا بي لأنني فكرت لحظتها أن الشاب قد

تكون صدمته سيارة لم ير قائدها فلا يستطيع أن يؤكد أو ينفي شخصية الفاعل، ولا يبقى أمامهم حينئذ إلا المغفَّل الذي حمل جريحاً ينزف وذهب به للمستشفى! وهنا تذكَّرت صاحب المحل الذي شهد الواقعة معي وهو جالس على كرسيه على الرصيف، وطلبت من الشرطي أن يأتي معي لسؤاله حتى يمكنني أن أنصرف إلى حال سبيلي..

وافق الرجل فاستبشرت خيراً وبدأت الطمأنينة تعود إلى نفسي.. ركبنا السيارة ودعوت الله أن يكون الرجل موجوداً ولا يكون غادر المحل لأي سبب.. ومن بعيد لمحته جالساً نفس جلسته الأثيرة يحتسي الشاي خارج محله.. توقفت بالسيارة ونزلت ومعي أمين الشرطة وتوجهنا نحوه، ولا أدري لماذا لمحت الاضطراب في ملامحه عندما شاهدني ومعي رجل البوليس. بادرته في لهفة: بالله عليك قل للأمين ما حدث؛ لأنه يريد معرفة حقيقة الأمر. قال الرجل: أي أمر؟ قلت وأنا لا أصدِّق: أمر الشاب الذي ترنَّح وسقط أمامك هنا، ودماؤه لا تزال آثارها على الأرض.. الشاب الذي تعاونت معي لأنقله بسيارتي للمستشفى. رد في خسة متناهية: لا أعرف عم تتحدَّث.. ربما تقصد شخصاً آخر!

طافت بخيالي لحظتها أسئلة كثيرة عن البشر والكون وجدوى الحياة وحكمة ربنا في وجود بشر من هذا النوع، ثم وجدت نفسي مستسلماً لقدري وأنا أقول للشرطي: هيا بنا للمستشفى فلعل الفتى يكون قد مات لتكتمل الدراما الإغريقية التي أواجهها. كنت أقطع الطريق بالسيارة وأنا في حالة وجوم، بينما أمين الشرطة يؤكد لي أنه يصدِّقني لكنه لا يدري ماذا يفعل.. داخل المستشفى استقبلنا الأطباء بابتسامة، وأخبرونا أنهم عرفوا الموضوع من الشاب حين استفاق، وحكى لهم أنه مصاب بالصرع وأن النوبات تداهمه بشكل مفاجئ فيسقط على الأرض ويتعرَّض للإصابة.. أضافوا أيضاً أنهم أسعفوا جرحه وتركوه يمضي لحال سبيله.

عندما عدت للشاهد الوغد كان كل ما أريده هو أن أفهم لماذا فعل ما فعل. قال الرجل في بلادة: عندما رأيت الشرطي معك ازددت يقيناً بما أؤمن به فعلاً، وهو أن من يفعل الخير في هذا البلد لا يلقى إلا سوء العاقبة، فاتخذت قراري بألا أفعل الخير!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البراءة التي رحلت

أول مرة أزور فيها مدينة مونتريال عام 1991 صادفت موقفاً أثار دهشتي وحبي لهذا البلد الجميل.. كندا.. كانت التليفونات المحمولة لم تظهر بعد، وعندما أردت إجراء مكالمة دولية فإنني توجهت إلى أحد تليفونات العملة الموجودة بواحد من المراكز التجارية وشرعت في قراءة التعليمات الخاصة بالاستخدام.. في البداية رفعت السماعة وهممت بأن أضع العملة في المكان المخصص، لكني فوجئت بصوت معي على الخط يطلب مني أن أدخل الرقم المطلوب. قمت بإدخال الكود الدولي ثم كود مدينة القاهرة وتلاه الرقم. كنت أتوقَّع أن يُطلب مني إدخال مبلغ معين في الماكينة بعدما عرفوا وجهة المكالمة وتعريفتها، لكن للغرابة اكتملت المكالمة، ووجدت الشخص الذي طلبته على الناحية الأخرى يرد ويرحِّب بي! مضيت في الحديث وبعد ثلاث دقائق سمعت صوتاً يتدخَّل في المكالمة ويعلمني أنه يجب وضع مبلغ كذا في الماكينة قيمة المكالمة التي أجريتها إلا إذا كنت أنوي التكملة لمدة أخرى.. بعدما فرغت من الحديث سمعت صوتاً نسائياً مهذباً يعلمني بإجمالي المبلغ الذي تحدَّثت به لأضعه في الماكينة! ظللت مرتبكاً للحظات إذ كنت أعتقد أن الماكينة قد تفضَّلت بمنحي مكالمة بالمجان نتيجة خلل أصابها، والآن بتُّ أفهم أن التليفون سليم من كل سوء، لكنهم هناك يثقون بالإنسان ويتركونه يجري مكالمته على راحته، ثم يأتونه بالحساب في النهاية مثلما يفعلون في المطعم، وكل ذلك دون حسيب أو رقيب!

راودتني نفسي أن أضع السماعة وأنصرف ولا من شاف ولا من دري، لكنني شعرت بالخجل من أن يكون هذا جزاء أناس احترموني ووثقوا بي، وعاملوني بلطف بالغ لم ألقه من قبل في سنترالات بلدي، التي كنت أذهب إليها عند الرغبة في إجراء مكالمة لجهة خارج مصر؛ في تلك السنترالات كان الموظف يأخذ الرقم ثم يقوم بتحصيل قيمة المكالمة مقدماً، ويطلب مني الجلوس لانتظار دوري، وعندما يأتي الفرج يطلب مني الدخول في الكابينة رقم كذا، وأن أرفع السماعة، ثم لا يكتفي بهذا وإنما يظل يلح: قول ألو.. قول ألو.. وقرب نهاية الدقيقة الثالثة يتدخَّل ليسألني في عصبية إذا كنت أريد مدة أخرى بحساب جديد، فإذا قلت لا قطع الخط فوراً، أما إذا قلت نعم يتركني ثلاث دقائق أخرى.. وعندما أغادر الكابينة أجد موظف الأمن في انتظاري؛ ليصطحبني من أجل دفع قيمة المدة الثانية..

كل هذا تذكرته فأخرجت المبلغ ووضعته بالماكينة وأنا شاعر بامتنان وسعادة بالغين، لدرجة أنني تمنيت أن أقضي عمري بهذا المكان الذي يمنح النفس سكينة، والذي لا يضطر الإنسان فيه إلى وضع عيون بقفاه من فرط التوجُّس والشك في الآخرين.

بعد عشر سنوات على هذه الواقعة ذهبت إلى مونتريال للإقامة والعيش بها.. عندما ذهبت إلى تليفونات الشارع أختبرها فوجئت بها قد تغيَّرت، وعلمت أنها تعلَّمت قسوة القلب مثل أخواتها ببلاد الدنيا المختلفة، فصارت تطلب الحساب مقدماً، ومما يؤسف له أن المهاجرين العرب كان لهم دور كبير في نزع البراءة عن السلطات

الكندية الطيبة، بعدما دخلت إلى المجتمع بأعداد كبيرة عناصر قادمة من بلاد القهر والكبت والكذب المقيت!

ولم تكن التليفونات فقط التي تغيَّر نظامها على يد أولئك الذين أدمنوا المكالمات الدولية الطويلة دون دفع ثمنها، وإنما قام الإخوة العرب أيضاً بتعليم السلطات ضرورة وضع صورة شخصية على بطاقة التأمين الصحي التي تكفل للمواطن العلاج المجاني.. حدث هذا بعد أن وجدوا أن هناك من يأتي بالأهل والعشيرة من الأوطان الأصلية ليدخلوا المستشفيات ويحصلوا على العلاج ويجروا الجراحات بالمجان، وذلك بعد أن يقدِّموا البطاقات العلاجية التي لا تخصُّهم مستغلين عدم وجود صورة عليها!

وهكذا نجح أبناؤنا في المهجر في أن يجعلوا أوطانهم الجديدة تفيق من الغفلة وتتخذ الإجراءات الكفيلة بتفادي التعرُّض للنصب، بعد أن نقلوا إليها سلوك البلاد الواعية الناصحة صاحبة الحداقة والمفهومية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بحبك يا مجرم

- الملسوع: ما لسه بدري يا هانم.. لماذا لم تتأخري أكثر من ذلك؟

- امرأة الملسوع: أرجوك لا تبدأ هذا الحوار معي الآن.. أين تظنُّ نفسك؟ في الأوبرج؟ أنت هنا سجين، وأنا أتجشَّم عناء المجيء إليك لإحضار الطعام والملابس وأتحمل سخافات العساكر والضباط.

- الملسوع: يا ولية أنا أكاد أموت جوعاً.. من صباحية ربنا لم آكل سوى فطيرة مشلتتة بالسمن البلدي.

- امرأة الملسوع: دائماً الطعام هو شغلك الشاغل.. ثم ما حكاية يا ولية هذه؟ هل عدت إلى ألفاظك النابية التي نهيتك عنها في السابق؟ من الواضح أنك رجعت لأصلك.

- الملسوع: كفِّي عن الهراء، وناوليني طاجن لسان العصفور بسرعة.

- امرأة الملسوع: أنت تعرف أن بإمكاني أن أسافر إلى الخارج وأتركك تتعفَّن هنا في السجن، لكني أتصرَّف كبنت أصول، ثم لا أجد منك كلمة شكر واحدة.

الملسوع: كلمة شكر؟ على إيه إن شاء الله.. أنا لم آتِ هنا إلا بسبب طمعك وجشعك أنت والمحروس ابنك.

- امرأة الملسوع: يبدو أنك استمرأت الركون إلى كذبة أن الملسوع رجل طيب وشريف، لكن الشيطانة زوجته هي التي حرَّضته على كل أنواع الشر، وكذلك ابنها الطماع.

الملسوع: أوَليست هذه هي الحقيقة يا بنت سلطح بابا؟

- امرأة الملسوع: اخرس وإياك أن تتفوَّه بكلمة زيادة يا ملعون.. الآن أصبحتُ بنت سلطح بابا؟ ألم تبوس الأرض بين قدمَي والدي حتى يرضى بك زوجاً لابنته.. ألم تتقرَّب لأخي حتى يدخل بك النادي بعد أن ضبطك مراراً تتجوَّل على رصيفه الخارجي؟

- الملسوع: وماذا يساوي أهلك بجانبي؟ أنا الذي فتحت أمامهم أبواب الثراء وجعلت كل واحد منهم ملياردير اً.. وأنا بفضل جهدي وعرقي أصبحت واحداً من أغنى أغنياء العالم، وجعلت منك شخصية مهمة بعد أن كانت أبعد طموحاتك أن تكوني ممثلة.. طز فيكي وفي النادي وفي أهلك جميعاً.

- امرأة الملسوع: آه يا نذل يا دون.. الآن تشتم أهلي الذين رفضوك مراراً بسبب أصلك المتواضع وعائلتك الفقيرة.

-الملسوع: الفقر ليس عيباً.. وجمال عبد الناصر لم تمنعه أصوله الاجتماعية المتواضعة من أن يحفر اسمه بين العظماء؟

- امرأة الملسوع: مالك أنت والعظماء يا مَوْكوس؟ إن جمال عبد الناصر لم يتنكر لأهله من أجل فتاة من مصر الجديدة.. عبد الناصر لم يمنع أمه من زيارته ظناً منه أن عائلة زوجته لا ترحِّب بها لكونها دون المستوى، وهو لم يتنكَّر لأبيه ويتركه يتضوَّر جوعاً خشية أن يغضب عليه الأكابر الذين صاهرهم.

- الملسوع: وهل تنكرين أن أهلك هم الذين ضغطوا عليَّ ومنعوني من أن أبر أمي وأبي حتى ماتا غاضبين عليَّ؟

- امرأة الملسوع: وحتى لو كان هذا صحيحاً.. هل هناك رجل شريف يطيع أوامر مثل هذه؟ أين رجولتك؟ أين مروءتك؟

- الملسوع: أنت آخر من يتحدَّث عن المروءة والشرف.. لقد كان ممكناً أن تمضي حياتي في هدوء لولا طموحك المدمِّر ورغبتك في الاستحواذ على المال والسلطة إلى الأبد.

- امرأة الملسوع: تتحدَّث وكأنك كنت زاهداً في المال والسلطة أيها العجوز الخرف.. لقد كنتَ المثل الأعلى لكل اللصوص داخل مصر وخارجها.

- الملسوع: من أجل أن أسدَّ عينك الفارغة يا حيزبون.. لقد كنت أعمل طوال اليوم لعشرات السنين، محاولاً تلبية طلباتك التي لا تنتهي.

- امرأة الملسوع: مَن تحاول أن تقنع بهذا الكلام يا مجنون؟ إنك لم تكن تعمل ساعتين في الأسبوع، وباقي الوقت كنت تُمضيه أمام التلفزيون أو على مائدة الطعام.

- الملسوع: ها أنت بغبائك ترددين ما يقوله خصومي من أنني لم أكن أعمل، وأنني كنت متفرغاً للأكل وفوازير شريهان.

- امرأة الملسوع: هذه هي الحقيقة.

- الملسوع: اخفضي صوتك الله يلعنك، فالحراس يستمعون إلينا وغداً تنقل الصحف كل ما دار بيننا الآن.

- امرأة الملسوع: طز فيك وفي الصحف وما تنشره.. هل تظنُّ أنني أخاف من أي شيء؟ بعد الفضائح التي لحقت بي بسببك لم يعد هناك ما يخيفني.

- الملسوع: وما قولك في أنني سأخرج من هنا قريباً مطوقاً بأكاليل الغار، وستعودين إلى مملكتك من جديد وكأن شيئاً لم يكن.

- امرأة الملسوع: واضح أنك لسعت فعلاً وأصبحت اسماً على مُسمَّى.

- الملسوع: اخرسي يا ولية وحاولي تفهميني.. إن أعواني في الخارج يعملون منذ فترة طويلة، وهم يسعون بدأب لا يعرف اليأس، وجهودهم متصلة.. مجموعة تسلِّم مجموعة، وحتى إذا قام الغوغاء بالخلاص من بعضهم برزت لهم مجموعة أخرى.

- امرأة الملسوع: أحقاً ما تقول؟

- الملسوع: إن الطبخة قد قاربت على النضوج، وقريباً بفضل رجالي الأوفياء حراس القانون سوف أعود لأعتلي العرش، وسترجع الأيام الحلوة.

- امرأة الملسوع: ملسوعي.. أنا آسفة لو كنت قد تفوَّهت بما يُغضبك، لكن كلامك جرحني.

- الملسوع: أنا الآسف يا روحي.

- امرأة الملسوع: بحبك يا مجرم.

التليفون المحمول

التليفون المحمول يرنُّ في جيبك في أي وقت وأي مكان دون أن يراعي الظروف، على العكس من التليفون الثابت الذي إذا رددت عليه فهذا يعني أنك جالس على الكنبة في استرخاء، وبإمكانك أن تترك التلفزيون الذي تتابعه أو الصحيفة التي تقرأها أو السندوتش الذي تأكله. والمكالمات الفائتة في التليفون الثابت لا حيلة لنا فيها؛ إذ إنها قد تأتي ونحن خارج البيت أو نجلس بعيدين عن مدى جرسه.

أما المحمول الذي يلازمنا في كل مكان ويصاحبنا رنينه في كل وقت، فمكالماته الفائتة نقوم بتقويتها عمداً.. والحقيقة أن هذا هو الغرض الفعلي من اختراعه.. أن يبقينا على صلة بالآخرين ويجعلنا متاحين لهم 24 ساعة في اليوم. ولا ينكر فضل المحمول إلا جاحد إذ إنه قد يكون وسيلة سريعة لطلب النجدة والمساعدة وقت الأزمات، كما أنه يجعل العالم بين أطراف أصابعك، ويمكنك من مكالمة أقصى الكرة الأرضية وأنت جالس في القطار أو على شاطئ البحر دون أسلاك ولا سنترالات. لكن لأن الدنيا لا تصفو تماماً فإن لهذا الاختراع مشكلاته النابعة من خصائصه. للتليفون الثابت تقاليد ترسَّخت عبر عشرات السنين؛ منها أنه لا يصحُّ طلب الناس بالبيوت في وقت متأخر؛ خشية أن يكون مَن بالبيت قد خلدوا إلى النوم.

أما المحمول فلم تتشكَّل له تقاليد بعدُ، أو أن ما تشكَّل منها لا يمنع الاقتحام والاستباحة في أي وقت! ولقد اعتدت أن أردَّ على المحمول بصوت خفيض أثناء وجودي بمكان عام حتى لا أزعج الآخرين بمكالمتي ولا أطلعهم على شؤوني الخاصة، لكن هذا الفعل الذي أظنه بديهياً ليس كذلك؛ إذ إن معظم الناس يتحدثون بالمحمول أثناء ركوبهم الباص أو حال وقوفهم بطابور السينما أو جلوسهم بالمقهى بصوت عالٍ، وهم يناقشون في المكالمة أدقَّ تفاصيل الحياة حتى الحميم منها والمُخجل!

ومن المفارقات العجيبة أنني تعرَّضت مرة لحادث سيارة سبّب لي إغماءة قصيرة، فلما استعدت الوعي كان المحمول الملقى في أرضية السيارة يرنُّ بإلحاح، وعندما استجمعت قواي وانحنيت لالتقاطه أتاني صوت من الطرف الآخر لشخص يتهلل فرحاً وهو يحدِّثني عن سعادته بكتابي الأخير الذي قرأه في جلسة واحدة.. لم أكن أعرف بماذا أردُّ بعد الارتطام العنيف وأنا أشبه بالسكران من الدوخة والألم الذي يفتِّت عظامي. أغلقت السكة فطلبني مرة أخرى وهو يعتذر عن انقطاع المكالمة، ويستكمل مناقشتي في الكتاب. لم أدرِ ماذا أفعل.. هل أصارحه بحالتي وأحكي له

عن السائق الغشوم الذي انحرف نحوي بسيارته منذ دقائق فاضطرَّني للصعود على الرصيف والارتطام بالحائط؟ أم أخبره عن الآلام التي تمزِّق رقبتي وظهري؟ أم أطلب منه أن يسكت ويطلبني في وقت آخر؟ الغريب أنني لم أفعل شيئاً من هذا.. تركته يتحدَّث وكنت أردُّ عليه في اقتضاب، بينما يستعرض فصول الكتاب، ثم وعدته باللقاء في أقرب فرصة، وأنهيت المكالمة دون أن يعرف شيئاً عن الحادث الذي ظللت أتعالج من آثاره لثلاثة شهور!

والغريب أنني لا أغلق التليفون عند النوم أبداً.. دائماً عندي إحساس بأن مكالمة مهمة قد تأتي في هذه الأثناء، رغم أن ما يأتي لا يعدو مكالمات هامشية لا تفعل سوى إنهاك جهازي العصبي، لكني لا أفقد الأمل، وأشعر بأن إغلاق الهاتف قد يمنع عني الخبر الجميل الذي عشت أنتظره طوال حياتي رغم أنني لا أعرف على وجه الدقة ما هو!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحياة حلوة

شاهدت حملة إعلانية بالتلفزيون تتعلَّق بمؤسسة مالية تقدم قروضاً للشباب تسمح لكل منهم بأن يقيم مشروعاً صغيراً يتمكَّن معه من العمل بالمهنة التي يحبها ويهواها ويبرع فيها أكثر من غيرها. الإعلانات جميلة وتم تنفيذها بمهارة وذوق عاليين.. قدَّمت نموذجاً لشاب يعمل بمحل لبيع السلع المختلفة يقدِّم له أحد الزبائن غرضاً ليقوم بلفِّه وتغليفه، وهنا نرى الشاب يطوي الكيس بطريقة معينة ثم يفرده في الهواء على طريقة من يصنعون الفطائر، وذلك كدلالة على أن هذا الشاب لا يعمل في مكانه الطبيعي، وإنما مكانه الحقيقي في محلٍّ فطاطري. إعلان آخر رأينا فيه رجل أمن يقوم بتفتيش أحد العابرين لبوابة إلكترونية بعد أن أطلقت صافرتها.. نرى موظف الأمن لا يكتفي بتفتيش الرجل وإنما يتدخَّل لضبط ملابسه بصورة تشي بأنه كان ترزياً في السابق، أو يحلم بأن يعمل بتصميم الملابس، ونفهم من هذا أن دكاناً للخياطة هو المكان الطبيعي له... وهكذا. ثم يمضي الإعلان طارحاً أن كل شخص يمكنه أن يعمل بالمهنة الذي يحبُّها دون التقيد بظروف السوق، ودون أن يضطرَّ لبيع حلمه والتضحية بطموحه من أجل لقمة العيش.

تأمَّلت الإعلان وتساءلت: ترى هل يستطيع كل شخص في مجتمعنا إذا أزيلت العوائق المادية أن يعمل بالمهنة أو الحرفة التي يريدها؟ لكني وجدت أن الردَّ بالإيجاب لن يكون هو الإجابة الصحيحة؛ ذلك أن معوقات مجتمعية كثيرة تقف دون تحقيق الناس لأحلامها، فمثلاً أين هو الأب الذي يوافق ابنه على أن يكتفي من الدراسة بقدر معين ليعمل بورشة نجارة كما يحب؟ إذا كان الأب غنياً ميسور الحال فسوف ينظر لولده على أنه مجنون يريد أن يهبط اجتماعياً بمستوى الأسرة، وإذا كان من أسرة فقيرة فسيعتبره أبوه مجنوناً أيضاً؛ لأنه يرفض الصعود الاجتماعي وشدَّ الأسرة معه لأعلى، بأن يصبح مهندساً أو طبيباً. ولو جرؤت فتاة على الإعراب عن حبها لمهنة التمريض ورغبتها في أن تصير ممرضة مثلاً وهي حاصلة على مجموع كبير بالثانوية فستقف الدنيا كلها في وجهها، ولن تسمح لها الأسرة بأن تفعل ما يعتبرونه خللاً في التفكير!

إذن هذا الإعلان يتم تقديمه لشريحة مجتمعية معينة لا تمتلك قيم الطبقة الوسطى في بلادنا التي تستعلي على الحرف والمهن اليدوية، وتصنِّف الأشغال التي يمتهنها الناس إلى راقٍ ووضيع. وليست هينة أبداً قدرة المجتمع على وأد أحلام الشباب في اختيار المهنة من خلال التلويح بأن الميكانيكي مثلاً لن يستطيع الزواج من ابنة إحدى الأسر الكبيرة. وفي واقع الأمر فإن الأهل وهم يفعلون هذا إنما يستندون إلى واقع مجتمعي أفرزته الدولة الظالمة والحكم الديكتاتوري الذي يكرِّس الطبقية ويقصر الحقوق على أبناء الطبقة العليا دون غيرهم. وفي هذا الشأن يمكن أن نلحظ أن رجل الشرطة في البلاد التعيسة يمكنه أن يعصف بالصنايعية وأصحاب الحرف ويمارس بحقهم الانتهاكات بأكثر من قدرته على إتيان الأمر نفسه مع أصحاب المراكز العليا والمهن اللامعة.. وهذا أمرٌ يجعل مَن يسعده أن يعمل بمقهى أو محل

بقالة من بين المتعلمين يتردد ألف مرة في اتخاذ القرار خوفاً على كرامته من البعثرة على يد كلب بشري!

والواقع أن الناس في البلدان الديموقراطية التي تحترم البشر وترعي حقوق الإنسان بصرف النظر عن جنسه ودينه ومهنته هم أكثر حرية في الاختيار، ويمكن للواحد منهم أن يكون ما يشاء دون أن يفقد حقه في الاحترام والكسب والحب والزواج، ولا أنسى أحد أصدقائي الكنديين وكان جاراً لي بمونتريال.. هذا الرجل عرفته كموزِّع بريد على دراجة، وقد أذهلني عندما حكى لي عَرَضاً أنه كان طياراً بشركة إير كندا، لكنه تركها بسبب حبه للانطلاق بالدراجة وتوزيع البريد!

الديموقراطية حلوة والسماحة حلوة والحياة حلوة.. لكن حكامنا ليسوا كذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مساحة إنسانية

الزحام عدوُّ السعادة، والمدن المزدحمة لا تمنح الإنسان سوى القلق والغثيان وحموضة المعدة.. وقد فهم الحكماء أن هناك حيِّزاً يحتاجه الإنسان ومساحة من البراح لا غنى عنها؛ ليستطيع الفرد فيها أن يمارس إنسانيته دون تطفُّل من الرؤوس المطلة عليه وهو يعيش.. وافتقاد هذه المساحة التي تتيح الخصوصية هو أحد الأسباب الأساسية لتعاسة البشر في كل زمان ومكان. وربما كانت الحياة في الريف حيث الحقول والخضرة الممتدة جالبة للسكينة لمن افترسته حياة المدن وعصف الضجيج بأعصابه، كذلك الاستقرار بالأماكن الساحلية المطلة على البحر تمنح الخيال فرصة للانطلاق بلا حدود، لكن مع ذلك لا الريف ولا البحر في بلادنا كافيين ليمنحا شخصاً الحقَّ في أن يجلس وحيداً إذا شاء دون أن ينقضَّ عليه قريب أو زميل من أجل الدردشة دون مناسبة عن أدق تفاصيل حياته التي اطَّلع عليها من جيرانه وزملائه في العمل! وفي الحقيقة ليس أصعب على الإنسان من مواجهة أنفاس الآخرين طوال يومه في الشوارع المزدحمة والمكاتب الضيقة والباصات الخانقة، وما أتعس من يعجز عن الحديث إلى صديق أو زميل دون أن يضطرَّ إلى الهمس حتى لا يسمع الجميع حديثه. وفي هذا الشأن يمكن النظر إلى أولئك الذين يعيشون بالأماكن العشوائية ذات المساكن المتلاصقة التي تفصل بينها وبين بعضها سنتيمترات على أنها الجحيم بعينه، خاصة وأنه في بعض الأحيان تكون ستارة من قماش هي ما يصنع الحدود بين مساحة الواحد منهم ومساحة جاره! ومن الطبيعي أن حقاً أساسياً تنصُّ عليه الدساتير جميعاً يكون معطلاً في ظروف كهذه وهو الحق في الخصوصية.. وأية خصوصية يمكن أن تتوفَّر عندما يخدم حمام واحد عشرات العائلات!

وليس الحيِّز المطلوب للسلامة النفسية هو الحيِّز المادي فقط، لكن يحتاج الإنسان أيضاً حتى في الأماكن المتسعة إلى قدر معقول من الخصوصية. صحيح أن الإنسان حيوان اجتماعي لا يستطيع أن يسعد دون وجود الناس في حياته، لكن هذا الوجود لا ينبغي أن يصل لدرجة الاقتحام التي تضيِّق الخناق على الناس، وتحرمهم السعادة حتى لو كانوا يعيشون في قصور. غير أن المبالغة في احترام الخصوصية في المجتمعات التي قطعت أشواطاً بعيدة على صعيد حقوق الإنسان قد جعلت الناس في أحيان كثيرة يدفعون ثمن هذه الحقوق من شعورهم بالوحدة والانزواء التي قد تدفع أحياناً إلى الانتحار.. وقد شهدت بنفسي في بعض عواصم الغرب مقاهي ومنتديات مفتوحة لتشجيع الناس على التعارف وتكوين الصداقات في مجتمعات ابتعد فيها الناس عن بعض؛ سعياً للحفاظ على المسافة الإنسانية المفترضة.. وربما أن هذا ما يؤدي إلى أن بعضهم عندما يزور بلادنا التعيسة ينبهر ويحسد الناس على الحميمية والقرب الذي يصل بينهم أحياناً لدرجة أن يركب خمسة أفراد على موتوسيكل، بينما لا يستطيع الواحد في بلادهم أن يلمس جاره مهما كان المترو مزدحماً!

ومن أشهر الشخصيات التي بالغت وتطرَّفت في مسألة الخصوصية هذه السيدة جاكلين كيندي أو أوناسيس التي كانت زوجة للرئيس الأمريكي جون كيندي ومن

بعده للمليونير الشهير أرسطو أوناسيس.. في عقد زواجها من رجل المال والأعمال اليوناني أصرَّت على إدراج بعض البنود التي رأت أن عدم التزام الزوج بها يجعل العقد مفسوخاً من تلقاء نفسه.. منها على سبيل المثال أن ينام كل منهما في غرفة منفصلة، ولها الحق في يومين في الأسبوع تقضيهما بعيداً عن الزوج، فضلاً عن شرط آخر أصرَّت عليه وهو ألا يدخل عليها غرفتها أبداً دون أن يتم إخطارها قبل ساعة كاملة على الأقل؛ وذلك لتتأكد من اكتمال زينتها. ومن الطبيعي أن هذه صورة متطرفة من الرغبة في الخصوصية وافق الطرفان عليها بسبب أن أياً منهما لم يكن يحب الآخر أو يحفل كثيراً بلقائه، وإنما هي تزوجته لماله وهو تزوجها ليُلحق بمملكته أرملة الرئيس الأمريكي.

ومع ذلك تظلُّ المساحة والحيِّز المناسبان شرطاً ضرورياً للسعادة.. والله أعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سأذهب إلى السينما

عجيب هذا المخُّ البشري. في الوقت الذي كانت تندفع بي السيارة بمنتهى السرعة، والسائق الذي أجلس إلى جواره يتشنَّج من الهول المقبل، وهو يحاول أن يكبح الاندفاع ويقلِّل من الصدمة المرتقبة.. في الوقت الذي كان ينبغي أن أنشغل بمحاولة النجاة عندما شاهدت سيارة بيضاء تكسر علينا وتضيق الطريق في وجهنا، والسائق يضطرُّ اضطراراً إلى الخروج عن الطريق لتفادي الاصطدام بالسيارة التي خرجت لنا من تحت الأرض.. في ذلك الوقت والارتطام بالرصيف المرتفع أصبح قدراً محتوماً لم أنشغل بالموت، كما لم أفكر في الآخرة ولم أتعجَّل الجنة أو أستبطئ جهنم.. لم يدر بذهني شيء مما يقول الناس إنهم يفكرون فيه عند مواجهة الكوارث ومجابهة الأخطار.. لم يخطر ببالي أن أفتح باب السيارة وألقي بنفسي خارجاً، كما لم أستسلم للموت المحدق وأفكر في تلاوة الشهادتين، لكن وجدت نفسي أفكر في شيء آخر عجيب هو: ماذا أقول لابني الذي وعدته باصطحابه للسينما هذا المساء؟ هذا والله هو ما خطر ببالي قبل الاصطدام بثانيتين.. وجدتني شاعراً بالخذلان وحزين لأنني لن أستطيع الوفاء بالوعد.. كان ابني "طارق" قد طلب مني أن آخذه للسينما التي لم ندخلها معاً منذ فترة، وعندما واجهته بأنه دائم الذهاب إلى السينما بصحبة أصدقائه، فما حاجته إلى أبيه بعد أن كبر وأصبح يرتاد السينما وحده؟ أخجلني قوله إنه لا يستغني عني، لكن صدمني تصريحه بأن الخروج معي يحمل الوعد بالعشاء في مطعم، وشراء ما يحتاجه من محلات المول دون نقاش!

كنت خارجاً لتوِّي من مدينة الإنتاج الإعلامي بعد برنامج "صباح أون" الذي كنت ضيفاً عليه، وكان التفكير في النوم يسيطر على تفكيري.. النوم الذي طار نتيجة اضطراري للاستيقاظ مبكراً؛ من أجل البرنامج الصباحي. تذكَّرت رفضي الدائم لأي ظهور ببرامج صباحية؛ حيث إنني أنام بعد الفجر وأستيقظ عند الظهر، لكني ضعفت أمام هذا البرنامج؛ لأني أحبه وأحب القناة والعاملين فيها. قلت لنفسي إنني سأنام فور وصولي للبيت. لكن ما كاد السائق يخرج من المدينة وينطلق في طريق الواحات حتى خرجت علينا سيارة مجنونة انحرفت نحونا وجعلتنا نخرج عن الطريق ونرتطم بالرصيف. لم أشعر إلا وأنا أنخلع من المقعد وأندفع للأمام لأدكَّ الزجاج برأسي ثم أغيب عن الوعي.. انتبهت إلى جرس الموبايل يدق وهو ملقى على الأرض وإلى صوت السائق يحاول إفاقتي وأحسست بألم شديد في رأسي. أفزعني أن يديّ الاثنتين كانتا في حالة شلل، فعجزت عن التقاط الهاتف الذي كان ما زال يرن. ناولني السائق التليفون وكانت المكالمة من صديق يثني على الحلقة التي شاهدها منذ دقائق. وجدت نفسي أتحاور معه في تفاصيل الحلقة، وتبادلنا حواراً ضاحكاً ثم أقفلت! ما إن أقفلت حتى نظرت إلى السائق في ذهول، وأنا أشعر بألم فظيع في رأسي وكتفي وذراعيّ وسألته: ماذا حدث؟ قال: قدَّر ولطف.. حمد الله على السلامة. نزلت من السيارة لأتأكد من قدرتي على الوقوف والمشي، فأبصرت صاحب السيارة التي تسببت في الحادث وهو يتحدَّث مع سائقي ويطمئنُّ عليه، ثم أتت مكالمة أخرى رددت عليها وأنا أنظر للرجلين يتبادلان حديثاً ودوداً، ثم يسلمان على بعض وصاحب السيارة البيضاء اللعينة يركب سيارته ويبتعد! سألت السائق

وأنا أتهاوى على الرصيف: كيف تتركه يمضي بعد ما فعل؟ كان يجب أن تطلب البوليس. أدهشني قوله: العوض على الله!

أثناء الساعات الطويلة التي قضيتها بالمستشفى لعمل الفحوص والأشعة المقطعية بعد أن اجتاحتني آلام شديدة بفقرات العنق كنت أسترجع ما حدث وأنا لا أصدق أن السائق لم يطلب البوليس ولم يعمل محضراً، على الأقل لتبرير حالة السيارة المهشمة أمام أصحاب السيارة! ووجدت نفسي أتساءل إذا كان ما حدث له علاقة بالطرف الثالث الذي يتحدثون عنه؟ أياً ما كان الأمر فإنني سأذهب إلى السينما مع ابني وأنا أرتدي الرقبة، وأخضع لتأثير الأدوية والمسكنات، لكني حتماً سوف أستمتع بالعرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فايزة أبو النجف

فايزة أشفور أبو النجف ابنة أشفور اللومانجي، ووالدتها هي تفيخة أبو الليل أكبر جامعة أعقاب سجائر في برِّ مصر. وُلِدت فايزة بعد ولد وبنت، ولم يكن يفرق مع أشفور جنس المولود.. في كل الأحوال سيطلقه في الشارع من أجل الرزق. في البداية كان أشفور يصطحب فايزة أثناء قيامه بضرب حقن الماكس للمدمنين في الخرابة، ثم أبعدها؛ لأن المدمنين كانوا يضربونها بعد أن يرتفعوا لفوق وتنتابهم الهلاوس عقب أخذ الحقنة ظناً منهم أنها الشيطان! وللحق فإن تصوُّرات المدمنين لم تكن تبتعد كثيراً عن الحقيقة؛ لأن فايزة كانت دميمة بشكل شيطاني خاصة حين تبتسم. الغريب أن أشفور كان يرسل عياله للمدرسة إلى جانب الشغل ليس بهدف الدراسة، ولكن من أجل بيع العسلية التي كان يصنعها في البيت، وكان المسؤول عن عمل العسلية هو شبل الابن الأكبر لأشفور. كان شبل يقوم بتجهيز العجينة ثم يعلقها على مسمار ضخم في الحائط، ويأخذ في شدِّ العجينة ومطِّها وهي على المسمار الصدئ حتى إذا لانت وأصبح قوامها طبيعياً أنزلها من على المسمار وأخذ في تقطيعها ولفها في ورق تمهيداً لبيعها بالمدرسة! وكثيراً ما نشبت الصراعات بين فايزة وأخيها شبل؛ بسبب أنها كانت تعلق في عجينة العسلية أثناء قيامها بلحس البضاعة وهي على المسمار، وكان شعرها يلتصق بالعسلية ولا يتحرر قبل أن تفقد قدراً من الشعر يختفي داخل العجينة بينما فايزة تصرخ من الألم.. كان شبل يشبه القط، شرساً يخلو فمه من الأسنان التي فقدها في خناقات الشارع، ورغم ذلك كان يخاف من فايزة حين تنظر في عينيه! أما الإبنة الوسطى لأشفور فكانت "مانجة"، وكانت تشبه أمها في الشكل والطباع. دأبت مانجة على الخروج مع الأم للتسوُّل في نوبتين صباحية ومسائية، فلما كبرت وصارت لا تستدرُّ عطف المحسنين كلَّفها أبوها بأن تحمل البخور وتلفَّ على المحالِّ في وسط البلد، فتقوم بإطلاق البخور داخل المحل بالإكراه، ومن يتقاعس عن الدفع كانت مانجة تقوم بتجريسه واتهامه بأنه أمسكها من مؤخرتها!

عاشت فايزة في كنف العائلة في حجرتهم بحارة الحنفية، وأراد والدها أشفور أبو النجف أن يسترها مبكراً، فقام بتزويجها وهي في الثانوية إلى "خُبيزة" صاحب الفرن على ناصية الحارة.. كان خبيزة فتوة سابق تقاعد بعد أن احترق وجهه في نزال مع بعض الأشرار. لم يهتم خبيزة بوجه فايزة القبيح، وضرب عنه صفحاً وتعامل فقط مع جسدها الطري، ولم تهتم فايزة بسحنته ولا بكونها أصغر من بناته، لكن سعت لتغيير حياتها بعد أن توقفت عن النزول للشارع للعمل، وصارت تأكل ثلاث وجبات في اليوم. لم يكن يضايقها من خبيزة سوى أنه كان يرغمها على تناول البرتقال بقشره! وحين جرَّبت أن ترفض كسر لها ضلعين.. عندما زارها أشفور بعد الإصابة خرج ومعه خمسمائة جنيه أخذها من زوجها ثمناً للضلعين المكسورين، وتمنَّى وهو خارج ألا يتبقى لها ضلع سليم! مع كل ذلك تقدَّمت فايزة في الدراسة ثم دخلت الجامعة، وهناك ابتعدت عن الطلاب المهتمين بالسياسة وركزت في المذاكرة.. لم تكن متفوِّقة لكن كانت تنجح. حاول أشفور أن يعطيها عسلية لتبيعها

في الجامعة لكنها رفضت، واضطرَّت أن تسحب من خبيزة المال لتسدّ حنك أبيها، كما دفعت من جيب خبيزة أيضاً لتقنع أمها وأختها بالكفِّ عن التسوُّل وبيع البخور.

بعد التخرُّج عملت في وظيفة حكومية، وحاولت أن تقطع صلتها بالماضي، وقد ساعدتها الأقدار فمات خبيزة وأصبحت أرملة، ثم انتقلت للعيش بشقة بالإيجار وحدها، وسرعان ما دخلت في علاقة مع أحد زملائها، لكنه ابتعد عنها لما عرف أنها ابنة أشفور المجرم. حدث التحوُّل الدرامي في حياة فايزة بعد أن تعرفت بسيدة أعمال اتخذتها سكرتيرة لها، وكانت تصطحبها معها إلى النادي، فتحمل لها الشنطة وتساعدها في ارتداء ملابسها، وتعرفت في النادي على رجال ونساء من طبقة اللصوص الكبار، وبدأت تلعب مع بعضهم في البورصة، فأصابت قدراً من المال، ثم انضمت إلى الحزب ونشطت بلجنة المرأة.

وعلت أسهمها بعد أن جنَّدتها مباحث أمن الدولة، وصارت عيناً لها داخل شركة مخدومتها، وفي النادي وفي الحزب أيضاً. في تلك الأثناء ماتت أمها تفيخة وصار أشفور مُقعداً كما دخل أخوها شبل السجن ليلة خروج أختها مانجة منه! أخذت فايزة قراراً بالتبرُّؤ من العائلة، ولم تعد تزورهم كما رفضت استقبالهم، وكانت متأسية في هذا بالنطع الكبير الذي تبرَّأ من أهله جميعاً بعد أن تزوَّج فتاة من مصر الجديدة، رغم أنه لم يكن من بين أهله أشفور ولا تفيخة أو مانجة! انفتحت طاقة السعد لها عندما دخلت مجلس الحريم بترشيح من سيدة الأعمال، وجاورت هناك الحيزبونات الكبار، ورأت كيف يستخرجن الفلوس من حنك العفريت.. وبعد أن تعرفت على امرأة المشلوح، واقتربت منها لم يعد بوسع أحد أن يوقف مسيرتها، فصارت هي وامرأة أخرى اسمها فرشنخة مسؤولتين عن العطايا والهبات التي تصل من الخارج، فكانت هي تفرز المجوهرات والأخرى تعدُّ البنكنوت، ثم تضعان الغنائم عند امرأة المشلوح بعد أن تقصَّ كل منهما لنفسها ما تيسَّر من خيرات.

حدثت زلازل وأعاصير وبراكين وفيضانات، وما زالت فايزة أبو النجف فوق وش الفتة.. الله يمسِّيك بالخير يا أشفور!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كلمة السر.. جَزَر!

الخلاف في الرأي لا يُفسد للودِّ قضية، لكنه قد يقسِّم دولة مثل الهند أو السودان إلى اثنتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جمّيز وعاصم الإسترليني

السادة الطامحون إلى كرسي رئيس الجمهورية -وعددهم حتى الآن يفوق العشرين- يضمّون أخلاطاً متنوعة، فيهم المرشَّح المحتمل وفيهم النطع غير المحتمل، منهم المحترم ومنهم الخسيس، فيهم الشريف وفيهم اللص، بينهم الوطني المخلص والقاتل الدنيء. غير أن مرشحاً بعينه من بين هؤلاء يمتلك قدراً من حبي وتقديري الممزوج بالدهشة والابتسام كلما شاهدته يتحدَّث، وطالعت العاطفة الصادقة تملأ كلماته وخطبه.. الدهشة بسبب شجاعته الفائقة وقدرته على التماهي مع المواقف الشريفة للثورة دون موائمات أو حسابات لدرجة إعلان رفضه الصريح لكل ما يصدر عن المجلس العسكري، أما الابتسام فبسبب أنه يشتطّ أحياناً فيصدر تصريحات عجيبة عن مصير أوباما الذي يرتبط به، وعن الشعب الأمريكي الذي سيحسم موقفه من رئيسه على ضوء فوزه في الانتخابات! ذلك هو حازم أبو إسماعيل.

ينتمي الشيخ حازم إلى التيار السلفي أو إلى الإخوان.. لا أدري، لكنه يختلف عن كثير من السلفيين الذين نعرفهم كما يختلف عن الإخوان الذين بتنا لا نعرفهم. عندما يقال إن أبا إسماعيل شيخ سلفي فإنني أتردد في التصديق؛ لأنه لا يشبه مثلاً عبد المنعم الشحات الذي لم يقرأ كتاباً واحداً لنجيب محفوظ أو لغيره ومع ذلك أصدر ضده أحكاماً مريعة، ووصف إبداعه الإنساني الراقي بالدعارة، وعندما يقال إن الرجل إخواني فإن الاستنكار يكون رد الفعل المباشر؛ لأنه وقف في الميدان في كل المرات التي رفض فيها الإخوان النزول، وآثروا إرضاء المجلس العسكري، وكان بصوته العالي في الحق ومواقفه الناصعة يؤكد أن الإسلاميين ليسوا شيئاً واحداً، وإنما هم مثل الليبراليين واليساريين منهم الألماظ الحر ومنهم الصفيح الفالصو.

لكني مع حبي للرجل أو بسبب حبي له دائماً ما استدعي في ذهني كلما رأيته أو قرأت تصريحاً له فيلم "المليونير" لإسماعيل يس.. ذلك الذي قام فيه بتمثيل شخصيتين: شخصية عاصم الإسترليني الوجيه المرائي، المتوائم المتكيِّف مع المجتمع والمساير للناس فيما يرونه وما يفعلونه، والمرتكب لأخطاء قد تودي به.. أما الشخصية الثانية فهي شخصية "جمّيز" التلقائي الطبيعي الطيب الذي يعبِّر عما في قلبه دون حسابات ولا تقدير للعواقب، الأقرب لطبيعة المجانين الذين فشلوا في احتمال رياء العقلاء ونفاقهم المقيت. عندما رأيت أبو إسماعيل في الميدان يصرخ في جمع من أتباعه والميدان يكاد يكون خالياً بعد أن تقاعس التيار الإسلامي عن تلبية دعوته في المرات التي دعاهم فيها للنزول، ثم لم يستجب له للغرابة سوى الشباب من التيارات الليبرالية واليسارية.. عندما حضرت هذا المشهد كنت أرى "جميز" الشجاع الذي يستطيع أن يقول للمجلس العسكري في عينيه: أنت المسؤول عن كل مصائب المرحلة الانتقالية. لكن عندما كنت أراه يعد الشباب بخطوات وشيكة مزلزلة سيعلنها عليهم في غضون ساعات وهو يقصد الاعتصام والبقاء في الميدان، ثم يجعل الآمال الثورية للشباب تعلو وترتفع، ولكن سرعان ما تغيض ثوريته ويخبو أوارها، فينصرف ويرحل تاركاً من تعشّموا فيه يمضغون حسرتهم.. عندها كنت أرى شخصية عاصم الإسترليني الذي غلبته الحسابات وردَّته على

أعقابه. وعندما استمعت في ذروة مجزرة شارع محمد محمود إلى حازم أبو إسماعيل وهو يمهل المجلس العسكري 24 ساعة لركوب الطائرة والفرار أيقنت أن المتحدِّث هو جميز البريء النقي، لكن سرعان ما عاد الشيخ حازم في ثوب عاصم الإسترليني عندما حدثنا عن أوباما المعلق مصيره بمصير أبو إسماعيل الانتخابي، وكذلك عندما نفى نيته إعلان ذمته المالية على الملأ قبل الترشُّح!

ولا أدري ما الذي يستحضر عنبر المجانين إلى المشهد الانتخابي بكامله فأرى جميز يُتهم بالجنون إذا قال الحق، إما إذا ردَّد الأكاذيب واندمج في المجتمع الزائف فإنه يكون محلّ حفاوة.. هل يذكِّرنا هذا المشهد بتصريحات بعض المرشحين ومن ضمنهم أبو إسماعيل؟ يحضرني كذلك مشهد الرجل الحكيم يتحدَّث إلى جميز عن أنهم هم العقلاء الوحيدون، ولهذا فقد عزلوهم وأبعدوهم عن المجانين في الخارج، وكذلك اسكتش العقلاء الذي لقي فيه جميز نفسه في مجلس أنس مع أصدقائه المجانين، واضطر إلى أن يجاريهم في حواراتهم (وهذا ما يفعله المرشحون مع الناخبين دائماً) فهم قد يقبلون التودُّد إلى نابليون لدرجة أن يقولوا له: يا أبو العيون السود يا نابليون يا زين.. ليلتك حظ وفيري جود حنلاقي زيك فين؟ أو مع نيرون الباحث عن الولاعة ليحرق روما قبل توجُّهه إلى الإذاعة لإلقاء خطبته الشهيرة عن البطة (هل يذكركم البط بأحد المرشحين؟) ثم يُقبل عنتر والأنباء تزفُّ قدومه: عنتر عنتر اوعي يجيلك عنتر.. هو المجدع هو السنتر. (يبدو الغناء لعنتر شبيهاً بأغاني شعبان عبد الرحيم لمرشحه الأثير)

تكمن الحيرة فيما يخص أبو إسماعيل في أن الشخصيات الأخرى المحسوبة على التيار الإسلامي واضحة مواقفها، بحيث يسهل علينا أن نضع واحداً مثل الدكتور محمد سليم العوا في خندق عاصم الإسترليني الذي أطلق الرصاص ثم كلَّف أتباعه بدفن الديك! كما يمكن أن نرى الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح أقرب إلى براءة وجدعنة جميز ابن البلد الشعبي المنحاز للبسطاء القادر على هزيمة زكي بشِّكها وجعْله يرحل عارياً دون "البلوفر".. أما الشيخ حازم أبو إسماعيل فهو يتنقل ما بين عاصم وجميز، ولا يكفُّ طول الوقت عن قول: "جَزَرْ" دون أن يتلقى رداً!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صديقي العجوز جدا

الناس في بلاد بره يعيشون الحياة ولا يتفرَّجون عليها، لا يتركون لحظة تمرُّ دون أن تشكِّل إضافة لذواتهم وللإنسانية.. هذا ما لمسته بنفسي من معايشة الناس في الغرب وفي الشرق أيضاً.. على العكس من الناس في بلادنا الذين يخشون من عيش الحياة، فيكتفون بأن يكونوا موجودين دون أن يكونوا عائشين فاعلين وشركاء مساهمين في الكرة الأرضية.

عرفت "لين هوبدين" في مونتريال بكندا.. كان طاعناً في السن بصورة لا توصف. أتي ليقابلني على المقهى بشارع سانت كاترين، وقد قام بصفِّ سيارته بجوار رصيف المقهى، حيث كنت أجلس مباشرة. نظرت إليه في ذهول لأنني تصوَّرت أنه سيأتي في سيارة تاكسي أو أن ابنته التي هي جدة لمجموعة من الشباب ستأتي به. هذه هي المرة الأولى التي أرى رجلاً في هذه السن يقود سيارة!

كان هوبدين يعمل وكيلاً إعلانياً لمجموعة من الصحف الكندية، وكان يشتري الصفحات بالجملة ثم يبيع منها قطعاً وأجزاء لمن يريد أن يُعلن عن خدماته وبضاعته بسعر التجزئة، لهذا فقد احتجت للتعرف به حتى يكون بيننا تعاون؛ من أجل الإعلان عن خدمات الشركة التي كنت أعمل مديراً لها.

سألته: قل لي يا لين كم عمرك؟ قال: كم تظن؟ قلت: أتصوَّر أن عمرك من عمر كندا ويهيأ لي أنك عبرت الأطلنطي مع ماجلان وفاسكو دا جاما وأميريكو فسبوتشي وبعدهم كريستوفر كولومبوس، ولعلك كنت من المساجين الذين أرادت إنجلترا أن تتخلَّص منهم فأرسلتهم للعالم الجديد. ضحك ضحكة صافية من القلب وقال: ولماذا لا تقول إنني من الأحرار الذين رفضوا ظلم ملوك أوروبا أو ممن ثاروا على طغيان الكنيسة، وقدموا للعالم الجديد فارِّين ببروتستانتيتهم وإنجيليتهم الجديدة؟! قلت: لا تبدو لي من ذلك الصنف يا لين.. شكلك يوحي بأنك مغامر ومشاغب وعاشق للأخطار.

قال: سأقول لك عن عمري حتى أريحك.. أنا يا سيدي من مواليد عام 1908 بمدينة كالجاري الكندية، خرجت مني شهقة وأنا أهتف: يا إلهي.. هذا يعني أنك في السادسة والتسعين. هزَّ رأسه موافقاً.

عند الحديث في البيزنس أدركت أنه شيطان لا يسهل خداعه، ولا يجوز التغرير به وإطعامه البالوظة. المهم أننا وصلنا إلى اتفاق مُرْضٍ لكلينا، وقمنا بتوقيع العقد ونحن نحتسي الميلك شيك على المقهى.

بعد أن فرغنا من البيزنس مال لين هوبدين ناحيتي، وكأنه يهمس لي بسر قائلاً: معي أربع تذاكر للأوبرا حفلة مساء الجمعة. قلت له: ولماذا كل هذا الفرح البادي في عينيك؟ قال: لأن المحظوظين فقط هم الذين تمكَّنوا من الحصول على تذاكر لهذا العرض الاستثنائي.. ثم زادت لمعة عينيه وهو يقول: هل تعرف أنني حضرت هذا العرض أكثر من عشر مرات طوال الستين عاماً الماضية، والمرة الأولى كنت فيها بصحبة فتاة في عام 1935، والمرة التالية كانت بعدها بخمس سنوات عندما

انغمست كندا في الحرب العالمية الثانية، وقد ذهبتَ للعرض في الليلة التي سبقت ذهابي للحرب في المحيط الهادي. قلت له: وهل كنت بصحبة فتاة أيضاً؟ مدَّ بصره للأفق وهو يقول: كنت بصحبة خطيبتي التي صارت زوجتي وأم أبنائي.. ثم تنهَّد وهو يضيف: وقد تركتني ورحلت منذ ثلاثين سنة. قلت له: تعيش وتفتكر يا عم هوبدين.

قال: ما قولك أن تأتي معي يوم الجمعة وسوف أتولى إحضار سيدتين من المجتمع الراقي حتى نضفي على الليلة بُعداً رومانسياً. قلت له مفزوعاً: سيدتان من المجتمع الراقي؟ كم عمرهما؟ قال: اطمئن.. الصغيرة سوف تكون من نصيبك. ضحكت وأنا أسأله: كم عمر هذه الصغيرة؟ وهل يا ترى شاركت في ثورة المكسيك؟ قال: لا أدري، ولكني واثق من أنها ستعجبك. قلت له: لين.. هل تعتقد أنني تخرجت معك بالجامعة سنة 1928 أم تظنُّ أن عمري 90 سنة ولهذا ستقدم لي الصغيرة ذات الثمانين ربيعاً؟ قال: أنت كثير الثرثرة.. تعال يوم الجمعة ولن تندم.

الغريب أنني ذهبت للقائه في اليوم الموعود، وقد ارتديت بدلة سواريه كما طلب مني، ولم يفُتْني أن أشتري وردة لأهديها للسيدة الصغيرة التي ستكون بصحبتي، وقد صدقت توقعاتي؛ لأن الوغد كان قد أحضر لصديقته وردة هو الآخر!

في الحقيقة أن السيدة الصغيرة التي لبَّت دعوة هوبدين كانت مخالفة لتوقعاتي.. صحيح أنها كانت في حدود الستين، وأنا لم أكن قد وصلت للأربعين بعدُ، لكنها كانت فعلاً جميلة، ولم يكذب الرجل حين وصفها بالرقي.. لقد كانت سيدة راقية مهذبة ومثقفة إلى أقصى درجة.. وقد دعوتهم بعد العرض للعشاء في مطعم كلاسيكي فاخر، ولم نتوقف عن الحديث والنقاش في تلك الليلة.. كانت السيدة مولعة بالأديب التشيكي ميلان كونديرا، ولحسن الحظ أنه من كُتَّابي المفضلين أيضاً.. وجدتها مهووسة بروايته "الحياة هي في مكان آخر" وأطلعتها على رأيي في أن رواية "خفة الكائن التي لا تحتمل" هي أفضل أعماله على الإطلاق..

كلمتني عن أديب برازيلي لم أكن قد سمعت عنه وقتها اسمه "باولو كويلو" (وقد صار فيما بعد مصدر إلهام وطاقة روحية لي). كلَّمتها عن نجيب محفوظ، ففوجئت بأنها تعرفه وقرأت له بعض رواياته، وقد شعرتُ أنني كبرت في عينيها لما عرفت أنني قابلت محفوظ وأجريت معه لقاء صحفياً منذ سنوات. حدَّثتني عن المدارس السينمائية المختلفة ووجدتها مثلي لا ترتاح لسينما انجمار برجمان، لكنها تعتبرها ضرورية في فترة الحيرة والتيه. لم أحدِّثها عن فيلم أحبه إلا وجدتها تعرفه وتحبه، من أول أفلام فيربانكس وماري بيكفورد الصامتة مروراً بشارلي شابلن ولوريل وهاردي، كما اكتشفت أنها حجَّة في أفلام هيتشكوك وتحتفظ بنسخ من أفلامه التي لا يعرفها أحد عندما كان في بريطانيا قبل أن يهاجر ويعمل في أمريكا، وأسعدني أنها مثلي تحب همفري بوجارت وكاري جرانت وأودري هيبورن، وتهيم بكل الأفلام المأخوذة عن رواية مونت كريستو. عرَّجنا بعد ذلك على الموسيقي بأنواعها، فأذهلتني بثرائها الفني وثقافتها الحقيقية دون ادِّعاء.

تمنّيت أن تطول الليلة ولا تنتهي، وفي النهاية ودّعتهم وأنا أشعر بامتنان عميق للعجوز جداً لين هوبدين.. ذلك الصديق الذي دعاني على الأوبرا بصحبة سيدتين من المجتمع الراقي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بروتوكول الشبح.. المتعاص!

شاهدت الفيلم الأخير للنجم توم كروز وهو الجزء الثالث من مجموعة "مهمة مستحيلة"، وقد عُرِض تحت اسم "بروتوكول الشبح". سبق نزول الفيلم دعاية جبارة ليس من الشركة المنتجة فقط.. ولكن احزر ممن؟ من الصحف والتلفزيونات العربية وخاصة الإماراتية، وعلى نحو أخص تلك الراغبة في دعم مدينة دبي، وإظهارها بالصورة الجميلة التي تستحقها.. ويرجع ذلك إلى أن جانباً من أحداث الفيلم تدور وقائعه بمدينة دبي، وبالتحديد داخل برج خليفة أعلى مبنى في العالم، وفي محيط البرج والمنطقة المجاورة له. أفاضت وسائل الإعلام لشهور طويلة في وصف أيام توم كروز بالمدينة العربية، ولياليه التي قضاها يتجوَّل بمعالمها ويتنزَّه على شواطئها وينعم بمتنزَّهاتها في أوقات راحته من التصوير، وقد تبدَّت في الصحف حالة من الامتنان لصُنَّاع الفيلم الذين اختاروا مدينة دبي واصطفوها دون غيرها لتكون ساحة لتصوير جزء من الفيلم، وبهذا دخلت التاريخ مثلما حدث لمدن أخرى خلَّدتها السينما الأمريكية في أفلام مثل كازابلانكا وأفلام جيمس بوند وغيرها.. ولِمَ لا ومدينة دبي قد قفزت قفزات واسعة في مضمار التحديث والبنية الأساسية، وصارت مدينة سياحية من الطراز الأول ينعم زائرها بمستوى ملحوظ من الراحة والرفاهية، ويجد في كل مكان بها ما يمتعه ويسليه.

لكن العجيب أن الفيلم قد صدمني، بل أقول أذهلني، وجعلني أكره الفيلم وصُنَّاعه وأرثى لحال الناس الطيبين الذين استقبلوا صناع الفيلم ورحَّبوا بهم وأحسنوا وفادتهم وسهَّلوا لهم التصوير، وقدَّموا ما لا يخطر على البال ليجعلوا إقامة توم كروز ومن معه سهلة وممتعة. بداية أقول إن لنا نحن العرب تراثاً طويلاً من التشويه والإساءة في الأفلام العالمية، ولطالما دأبت هوليود على تقديم العرب في صورة المتخلفين الهمج الذين يعيشون في بيئات قذرة، وتحفل مدنهم بالمظاهر البدائية في المباني والشوارع والأسواق، وكذلك في السلوك والتعامل.. وذلك في مواجهة الرقيِّ والتحضُّر الذي يمثله بطل الفيلم الأمريكي!

كل هذا اعتدناه وشاهدناه في الأفلام التي صُوِّرت بالقاهرة وبيروت وبغداد وتونس والمغرب والرياض وغيرها.. ومع استيائنا من تلك الأفلام كنا نقول لأنفسنا: نعم.. هم سيئو النية ولا يحبُّوننا، لكنهم في النهاية لم يصوروا سوى الواقع.. صحيح أنهم تجاهلوا الأماكن النظيفة ومظاهر التحضُّر، واهتموا بتصوير الأحياء العشوائية وأكوام القمامة، لكنهم لم يخترعوها، وعلينا أن ننظِّف مدننا قبل أن نلوم من يسيئون إلينا بتصويرها. لهذا كانت صدمتي كبيرة في هذا الفيلم الذي تم تصويره في واحدة من أنظف وأجمل مدن العالم.. وكان يكفي للكاميرا أن تتجوَّل بحيادية في أي مكان تشاء من المدينة لتقدِّم للناس صورة حلوة عنها وعن أهلها، ولكن الزبانية من الصهاينة صُنَّاع الفيلم دسُّوا على المدينة ما ليس بها، وقاموا بتشويه جمالها، وركَّزوا على مناظر من اختراعهم أساءت لدبي وقدَّمتها في صورة رديئة للغاية.. فعلى سبيل المثال اندفعت الكاميرا في عمق الصحراء ورأينا سيارة تسير وعلي جانبيها الرمال من كل جانب، وهذه صورة لا علاقة لها بمدينة دبي.. ربما يكونون

قد صوَّروها داخل الصحراء الإماراتية المترامية رغم أن أحداث الفيلم لا تدور بالصحراء، وإنما قصد زرع وتثبيت الصورة النمطية عن بلادنا.. حتى لو قمنا بتشجير الصحراء وبناء المدن الحديثة فوقها فإنهم ينأون عن هذا ويصورون الرمال!

ثم إنهم وهو الأغرب لم يقوموا طوال ساعة كاملة من أحداث الفيلم بتصوير أي مكان من دبي التي نعرفها ويعرفها السياح الذين يفدون إليها من كل مكان.. قاموا بتصوير كروز وهو يتسلَّق برج خليفة دون أن يقدِّموا صورة بانورامية للبرج تظهر روعته، وإنما قدَّموا رجلاً يزحف فوق النوافذ والشبابيك في لقطات مقرَّبة مقصودة، ثم إنهم قدَّموا لقطات للميناء لا يعرفها أحد ممن عاش هناك ويعرف شكل الميناء جيداً، وصوروا كذلك مطاردة مفترضة في شوارع دبي لم نر فيها غير أماكن عجيبة بها خيام ورمال!

وفوق كل هذا رأينا سحابة رهيبة من الغبار تابعها الفيلم منذ لحظات تكوُّنها وصوَّرها وهي تقترب من المدينة حتى تغطيها تماماً وتغرقها في الظلام الدامس الخانق. ولقد برهن صناع الفيلم على تعصُّب مقيت وكراهية ظهرت واضحة عندما انتقلت أحداث الفيلم لتكتمل في مدينة بومباي الهندية.. بومباي التي يعرفها كل من زارها كمدينة مزدحمة خانقة تعجُّ بالبشر الهائمين على وجوههم، وتمتلئ بمظاهر العشوائية والقذارة والتسوُّل والسلوك الخشن.. هذه المدينة تم تقديمها في أبهى صورة فرأيناها أروع من طوكيو وأجمل من سنغافوره وأكثر أناقة من جنيف.. تم إخفاء كل ما يسوء بها، وذلك على عكس ما فعلوه بدبي التي طمسوا جمالها وشوَّهوها..

ورغم هذا فقد رأينا توم كروز يتم استقباله في مهرجان دبي السينمائي استقبالاً أسطورياً كما لو كان الرجل سفيراً للنوايا الحسنة يمثل إمارة دبي ويقدمها للعالم في أحلى صورة.

يبدو أننا نستحق ما يحدث لنا؛ لأننا لا نجرؤ حتى على إظهار الغضب في وجه من يسيء إلينا، ولكن نعامله بأريحية وكرم.. وربما تكمن المصيبة الحقيقية في أنهم بدبي قد ظنُّوا أن الفيلم يحييهم ويقدِّمهم في صورة طيبة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرشحون ولقطات سينمائية!

المتابعون لروتانا زمان وغيرها من قنوات الأفلام التي استولت على التراث السينمائي المصري لا شك يسعدون بمشاهدة نجوم الفن أيام ما يسمَّى بالزمن الجميل. لكني أعتقد أن مشاهدة الحالة الرئاسية بمرشحيها الفانتازيين لا تقل متعة، خاصة أن هناك من السادة المحتملين وغير المحتملين مَن يشبه فناني زمان، ويقدِّم لقطات لا تقلُّ روعة عما كان يقدَّم في سينما الأمس.

لا يظهر السيد أحمد شفيق على الشاشة إلا ويقفز إلى ذهني واحد من ألطف وأحبِّ الفنانين إلى القلب وهو ستيفان روستي، ذلك الموهوب المحترف. عندما قدَّم شفيق لقطة البونبوني الشهيرة حين وعد الثوار بأن يحوِّل لهم الميدان إلى هايد بارك ويذهب إليهم حاملاً البونبوني، رأيت هذه اللقطة تشبه ستيفان الجميل وهو يتقدَّم من فاتن حمامة حاملاً كأساً من الشراب، ويقول لها في لطف بالغ: اشربي يا أمورة، ثم حين يلمح في يدها كأساً من الكونياك فإنه يبارك اختيارها قائلاً: أوه كونياك.. مشروب البنت المهذَّبة! هذا فضلاً عن أن ستيفان روستي بأصوله الأوروبية كان كثيراً ما يستخدم كلمات أجنبية في حواره مثلما يفعل شفيق.. وعلى الرغم من أن الكلمات الأجنبية لا تُستخدم كثيراً في حارة كوع القرد، إلا أن المرشح الرئاسي اجتهد وقتل واتقتل وعلّم نفسه انجليزي!

وهناك أيضاً السيد عمر سليمان الذي كان ما إن يطل بسحنته على الشاشة حتى أجدني أستدعي على الفور الفنان صلاح نظمي؛ بصرامته وعبوسه وأدواره التي قدَّمها بإتقان نتيجة موهبته الكبيرة حتى إنه برع في تقديم الشخصيات ثقيلة الظل.. هذا ويحفظ التاريخ القضية التي رفعها نظمي على الفنان الراحل عبد الحليم حافظ بعد أن اختلط الأمر على العندليب عندما سألته الإعلامية سناء منصور في أحد البرامج عن أثقل الفنانين ظلاً فقال: صلاح نظمي، وكان في هذا يخلط بين الفنان وأدواره، غير أن هناك وجهاً آخر للمرشح عمر سليمان رأيناه أيام الثورة وهو وجه يشبه الفنان سراج منير خاصة في فيلم شمشون ولبلب.. بدا هذا الوجه عندما توالت الأحاديث الصحفية للسيد نائب رئيس الجمهورية الذي لم نكن سمعناه يتكلَّم من قبل، وحديثه عن الشعب المصري الذي يفتقد ثقافة الديموقراطية، ثم الختام الذي كان عندما زفَّ إلينا نبأ رحيل المشلوح عن السلطة، وقال: "والله الموفَّق" بفتح الفاء بدلاً من كسرها.. وهنا أدركنا أن شمشون الذي كنا نخاف منه أضعف بكثير من لبلب ابن البلد الذي قام بالثورة، ونجح في شلح مبارك ونائبه!

وهناك السيد عمرو موسى الذي يذكِّرني بالفنان زكي رستم وهو يقوم بأدوار الرجل الكبير الذي يخطط لكل شيء من وراء ستار، ويترك الأتباع يتولون التنفيذ.. رأيت عمرو موسى في مشاهد مختلفة بعضها مع فريد شوقي يتبادلان الاتهام بالمسؤولية عن الخراب الذي حدث، كما رأيته مع فاتن حمامة وهو يتحمَّل نزقها واجتراءها، بينما يتحيَّن الوقت المناسب لتسديد الضربة القاضية إليها.

أما الدكتور سليم العوا فقد رأيته في لقطات تحمل إلينا ملامح من أدوار كان يمثلها المرحوم زكي إبراهيم ذلك الرجل الطيب الذي كان يقوم في كل أفلامه بدور رجل

"بيطلع في الروح"، وكان يسعى بسبب طيبته ونيته الحسنة لإقناع المظلومين بأن المجرم ليس مجرماً كما يظنون، كما يعمل جاهداً على نشر الوئام بين رجال العصابة وبين الضحايا!

ولا أستطيع أن أغفل مناظر ولقطات السيد منصور حسن التي تتشابه مع لقطات الفنان الراحل محمد توفيق في أدواره العظيمة، التي جسَّد فيها شخصية الرجل المغلوب على أمره، الخاضع لسطوة أبو زيد الهلالي والزناتي خليفة وسيف اليزل.. الرجل الذي ينظر لكل شيء ويفهم كل شيء، لكن يتظاهر بأنه لا يرى، ويعتقد الحكمة في الخضوع للواقع المرير لا في تغييره.

وهناك المزيد من المرشَّحين والمزيد من الفنانين نؤجِّل الحديث عنهم لمرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تاكسـي المطار

بعد الخروج من الدائرة الجمركية واجتياز الباب المؤدي لصالة المطار قبل الوصول للشارع يفاجَأ القادم من الخارج بعشرات الناضورجية والشبيحة يطوِّقونه من جميع الجهات.. هذا يمسكه من كُمِّه وذاك يضع يده على الشنطة، ويرنُّ في أذنه نداء: تاكسي.. تاكسي.. ليموزين.. ليموزين.

تقدَّمت وشققت طريقي متجاهلاً هؤلاء، إلا أن واحداً منهم كان لحوحاً للغاية.. قال لي: تاكسي يا بيه؟ قلت له: شكراً. قال: العربية نضيفة. قلت: أشكرك.. معي سيارتي الخاصة. قال: التاكسي بتاعي بالعداد فلا تقلق! ضحكت وقلت: وهل كون سيارتك بها عداد يُعتبر سبباً كافياً لأن أترك سيارتي بساحة المطار وأركب معك؟ قال: وحياة أبويا العربية زي الفل. وهنا توقَّفت ونظرت إليه ملياً وأنا في دهشة وحيرة معاً.. ماذا أقول لهذا الرجل الذي أخبرته بأن سيارتي معي بالخارج، ومع هذا ما زال يحدِّثني عن مزايا سيارته ذات العداد.. لا بد أن الشيطان الذي تحكي الأساطير أنه يبول على المغفلين ليمنحهم البركة قد اختصَّ هؤلاء الناس بنفحاته! الغريب أن هذا الشخص ليس سائقاً ولا صاحب سيارة.. هو مجرد وسيط يتصيَّد الركاب ويأخذ حسنته، وهو في واقع الأمر ضحية سلطة مجرمة لا تترك للناس وسيلة طبيعية لكسب الرزق.. تترك لهم فقط ما يضعهم في اشتباك مع الناس، وما يجعل منهم هدفاً للسخرية.

في كلِّ مطارات العالم ابتداء من مطار قندهار حتى مطار زنزبار مروراً بمطار شهبور بختيار توجد منظومة واحدة تحكم عملية نقل الركاب إلى المدينة.. ليس هناك اجتهاد، إنما هو "مانيوال" واحد يلتزم به الجميع، وهو يتلخَّص في وجود صف من سيارات الأجرة تقف خلف بعضها في طابور أسفل الرصيف على باب صالة الخروج.. أما على الرصيف فيوجد مَن ينظِّم وقوف الناس بحقائبهم وعربات عفشهم صفاً واحداً أيضاً؛ بحيث إن أول واحد في طابور الركاب يتقدَّم من أول سيارة في طابور التاكسي.. وهكذا. لكن عندنا في مطار القاهرة الأمر مختلف تماماً، فكما أسلفت يتلقفك الناضورجية والقومسيونجية منذ الخروج عارضين بضاعتهم وسط الصالة في منظر لا مثيل له في أي مكان بالعالم.

الأغرب أنه عندما توافق لأحدهم على توصيلك فإنه يصحبك للخارج بعد أن يأخذ شنطتك فلا تجد أثراً لأي تاكسي! تسأله: أين السيارة؟ فيجيبك: هناك أهي. تسأله: هناك فين؟ فيقول تعالَ معايا وخليك صبور. تتحلى بالصبر وتذهب معه فيعبر بك الرصيف إلى الناحية الأخرى من الشارع.. تجد نفسك تجري وراءه لأن حقيبتك معه، ثم يصل بك إلى سُلَّم حجري تنحدر معه إلى مستوى آخر من الشارع، وبعد ذلك يقطع بك في الفيافي والقفار المحيطة بمنطقة المطار حتى تجد في آخر الرحلة سيارة تعيسة مختبئة بين الصخور أو تحت شجرة، ثم يسلمك للسائق؛ حيث تكون مهمته قد انتهت وعليك أن تنفحه ما فيه النصيب، ثم تدخل في مغامرة جديدة مع السائق للاتفاق على الأجرة!

عندما سألت السائقين لماذا لا يقفون أمام الصالة مثل بقية المطارات في كل الدنيا فشلوا في إعطائي مبرراً مقبولاً، وقالوا إن الأمن يمنعهم من الاصطفاف أمام الرصيف.. ولست أفهم في الحقيقة أي عقلية أمنية تلك التي تمنع السيارات من تحميل الركاب بمجرد الخروج، وتجعل التعاقد مع الراكب يبدأ بشكل إجباري من خلال سمسار متجوِّل في الصالة يأخذ الراكب في رحلة ويصعد به ويهبط قبل أن يصل إلى مكان ناءٍ على أطراف المطار يختبئ به السائقون وكأنهم ينقلون شحنة مخدرات لا ركاب وحقائب!

هذا هو المطار الذي يراه السيد أحمد شفيق دُرَّته الخالدة وفخر إنجازاته ومناط استحقاقه للكرسي الرئاسي! ماذا لو كان السيد شفيق قد بنى مطاراً طبيعياً به تاكسي يمكن ركوبه من على الرصيف بجوار بوابة الخروج؟ ترى هل كان يطلب منا أن نبايعه ملكاً على مصر والسودان، ثم نورِّث الحكم لأبنائه من بعده؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المبلغ المطلوب من السيد فلان!

لم يقتصر الخراب الذي أحدثه حكم الرئيس الساقط مبارك على جانب دون جانب في أوجه الحياة بمصر، بل وزَّع ثمراته المُرَّة بالعدل على الجميع. في مصر فقط تستطيع دون أن تشعر بأدنى تأنيب ضمير أن تقول إن معظم التجار وأصحاب المحال التي تبيع السلع المختلفة هم نصابون بطريقة أو أخرى. لن أتحدَّث عن الغش التجاري أو بيع السلع المضروبة على أنها أصلية، لكني سأذكر شيئاً لافتاً للنظر لاحظت تكراره عند كل مرة أكون فيها بصدد شراء سلعة ما سواء كانت أثاثاً أو سجاداً أو أدوات مكتبية أو كهربائية أو صحية أو أي شيء يخطر على البال. لاحظت أن المحلَّ لا يعطيك فاتورة بالمبلغ الذي دفعته! المحال في كل بلاد الدنيا تعطي للمشتري فاتورة تتضمَّن اسم السلعة ومواصفاتها والسعر المدفوع فيها، وبمقتضى هذه الفاتورة يستطيع الزبون في ظرف زمني معين أن يستبدل السلعة أو يقوم بإرجاعها ويحصل على فلوسه. وهم حين يفعلون هذا لا يفعلونه عن غفلة أو جهل، وإنما لأن أصول البيزنس تقتضي تقديم الخدمة الجيدة والتعامل الأمين، الأمر الذي يكسب المكان سمعة طيبة، بما يفتح الباب لتعاظم الأرباح. أما هنا فلا أحد يحفل بالحفاظ على الزبون، وآية ذلك أنهم عوضاً عن الفاتورة الطبيعية يقدمون له ورقة مطبوعة بها اسم المحل وتفصيلات السلعة، لكن تعلوها جملة عجيبة من الواضح أن التجار اتفقوا أو توافقوا عليها، ووجدوا أنها تحقق لهم المطلوب، هذه الجملة تقول: "المطلوب من السيد فلان مبلغ كذا..." ويقوم البائع بكتابة اسم المشتري ثم يطوي الورقة ويقدمها للزبون مع ابتسامة وداع! المسخرة في هذه الورقة أنها لا تعني أن الزبون دفع المبلغ، وأن المحل تلقاه، لكنها تعني بوضوح أن هذا المبلغ مطلوب من الزبون، وبطبيعة الحال لا يستطيع المشتري أن يستبدل أو يرجع السلعة، كما لا يستطيع أن ينازع التاجر بالقانون؛ لأن الورقة التي بحوزته لا تثبت سوى أنه مدين للمحل!

عندما استفسرت عن سبب هذه الورقة المضروبة الخالية من المعنى قام أولاد الحلال بتوضيح الأمر على أنه محاولة ذكية للتهرُّب من الضرائب ابتدعها التجار الذين لا يرون داعياً لسداد ضرائب لحكومة لا تقدِّم لهم خدمات تُذكر. كدت ألتمس للتجار بعض العذر لولا أنني كنت بصدد شراء بعض الأشياء من محل شهير بشارع عباس العقاد بمدينة نصر، وبعد سداد الثمن فوجئت بالبائع المهذب يطلب مني الاسم كاملاً ورقم التليفون، ثم بعد أن قام بتدوين البيانات طلب مني التوقيع على الورقة. سألته في دهشة: علام تريدني أن أوقِّع؟ قال: أريد توقيع سيادتك على أنك استلمت السلع المكتوبة في الفاتورة. قلت وقد استبدَّت بي الدهشة: هل هذه طريقة جديدة للبيع والشراء؟ منذ متى يقوم الزبون الذي يدفع ثمن أشيائه نقداً بالتوقيع بالاستلام؟ الطبيعي أن أعطيك الفلوس وأحصل على سلعتي مع الفاتورة وأرحل، وكان يمكن أن أفهم مسألة التوقيع بالاستلام لو أنك تقوم بتوصيل السلعة إلى المنزل "ديلفري".. ثم إن هذه الورقة التي قمت لتوِّك بملئها من أصل وصورتين ليست فاتورة دالة على السداد، وإنما هي ورقة سخيفة مكتوب بها: المبلغ المطلوب من السيد فلان هو كذا.. وتوقيعي على هذه الورقة بصيغتها الشيطانية هذه

تعني أنني أقرُّ بعدة أشياء: أولاً بأنني استلمت السلعة الموضّحة وثانياً بأنني لم أدفع لكم مقابل ما أخذت، ولكن مطلوب مني سداد هذا المبلغ! ارتبك البائع وقال إن كل الناس تقبل هذه الورقة دون نقاش، ثم نادى على مديره الذي حاول تبرير المسألة بكلام فارغ أكد لي أنهم نصَّابون حتى النخاع. وبطبيعة الحال اضطروا أن يكتبوا لي فاتورة حقيقية من دفتر موجود لديهم ولا يستعملونه مطلقاً.

خرجت من المحل وأنا مهموم وحزين؛ لأن الأمر تخطَّى هنا مسألة التهرُّب من الضرائب إلى النصب العلني، وذلك بالحصول من الزبون على شهادة موقّعة تفيد بمديونيته لهم رغم أن فلوسه تقبع في خزانتهم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن المضيفين والمضيفات

أخذ موضوع الإضراب الذي قام به العاملون بالضيافة في مصر للطيران حيزاً كبيراً من اهتمام الصحافة، بعد أن أدَّى إلى توقُّف حركة السفر وتكدُّس الركاب بالمطارات المصرية. وقد تباين التناول الإعلامي لموضوع الإضراب، وبدا أن الكثير من الصحف والمحطات التلفزيونية ما زالت أسيرة النظرة القديمة التي أورثتها إياها الدولة الشمولية التي كانت توفر للناس متطلبات الحياة وتمنعهم مقابل ذلك من الإضراب.

الغريب أن نظام الحكم في مصر طوال سنوات الملعون كان يحرم الناس من اللقمة وفي نفس الوقت يتعامل مع الإضراب عن العمل باعتباره جريمة، والأمر الأغرب أنه بعد قيام ثورة عظيمة خلعت القتلة واللصوص لا يزال البعض عندما تتأثر مصالحه ينكر على العاملين الحق في الإضراب، ويصوِّر احتجاجهم السلمي على أنه حركة تمرُّد ينبغي سحقها بالقوة! حقيقة الأمر أن حق الإضراب مكفول بمقتضى المواثيق التي وقَّعتها مصر وإن لم تحترمها في السابق.. لكن يتعيَّن على من ينوون القيام بإضراب أن يتعلَّموا تقاليده ويراعوها؛ حتى يكون لعملهم الاحتجاجي صوته وتأثيره دون الإضرار الجسيم بمصالح الناس.

من الملاحظات الجديرة بالذكر في إضراب المضيفين الأخير أن هناك فئات كثيرة استنكرت أن يقوم هؤلاء بالذات بالإضراب، ليس إنكاراً لحق معلوم ومستقر في المواثيق بقدر ما هو إنكار لأن يقوم بليِّ ذراع الشركة نفرٌ عُرفوا بسوء المستوى المهني لدرجة أن صار يُضرب بهم المثل في ترهُّل الأداء والخدمة المتواضعة والتعامل مع الراكب بدون نِفس!

وربما كان لهذا النقد نصيب من الصحة، لكن النظر للصورة بشكل شامل قد يكشف عن أن أطقم الضيافة كثيراً ما تعمل بالحد الأدنى من الأفراد اللازم لأداء العمل، وهي لا تصل أبداً للمعدلات القصوى أو العادية من حيث الأعداد، وهذا يلقي عبئاً عصبياً ونفسياً على العاملين بخدمة الركاب على الطائرة طول الوقت، هذا غير طبيعة الركاب على الشركات العربية ومنها مصر للطيران وطلباتهم العجيبة، وتحديهم للتعليمات بصورة كفيلة بأن تُخرج الحليم عن طوره مهما اعتصم بالصبر.

وعلى سبيل المثال ركاب الطائرت العربية فقط الذين يهبُّون واقفين بعد هبوط الطائرة، وأثناء تحركها على الأرض في طريقها لموضع التوقُّف، وهم من يسارعون بفتح أماكن حفظ الحقائب اليدوية في الرفوف أعلى المقاعد بينما الطائرة ما زالت تتحرَّك، وهم من يتزاحمون للخروج من الباب قبل غيرهم دون داعٍ متناسين أن الجميع سيلتقون في النهاية حول سير الحقائب! لكن تتبقَّى في النهاية ملاحظات تتعلق بعمل المضيف أو المضيفة بوجه عام، فيمكن القول بأنه عمل مرهق للغاية بدنياً وعصبياً؛ من حيث أوقات اليقظة والنوم وتغيُّر الساعة بين بلد وآخر، ومن حيث تأثيره على الحياة الاجتماعية لمن يمتهنه، فهو قد تفوته مناسبات عائلية كثيرة كحفلات التخرُّج والأعراس وأعياد الميلاد والمجاملات المعتادة وقضاء الأعياد مع الأسرة..

لهذا فإن أسباب الضيق بهذا العمل كثيرة ولا ينجح فيه إلا من يحبه.. وهنا نأتي إلى نقطة بالغة الأهمية تتعلق بطبيعة الشعوب واختلافها عن بعضها، فالشعب السويسري على سبيل المثال هو شعب مضياف بطبعه ولا بد أن ينعكس هذا على أداء المضيفين السويسريين، أما في مصر فإن شعبها طيب حقاً لكن يضرب مهنة الضيافة في مقتل بها أن أحداً في الحقيقة لا يحب هذه المهنة ولا يتمنَّاها، وإنما يسعى إليها من يحلم بالسفر والمغامرة، ويبغي مزاياها دون مغارمها..

وإذا انطبق هذا الأمر على الشباب من الجنسين فإن الأولاد أو الرجال يختصُّون بالنظر لخدمة الركاب باعتبارها شيئاً شائناً يفعله الواحد منهم بتأفُّف وقرف لا يُلجئه إليه إلا الحاجة، وهو يعتبره خطوة مرحلية يرى فيها العالم ويجمع قرشين قبل أن يستقر على العمل الذي يحلم به! ويمكن القول بأن أسوأ مضيف في العالم هو الشاب "البُرمجي" الذي يرى نفسه أفضل من الركاب، ومع الأسف هذا النوع متوفِّر لدينا، وربما إليه يعود غضب الناس على المضيفين، وعدم تعاطفهم مع طلباتهم برغم مشروعيتها.. والله أعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العبث والجنون

كنت أجلس بإحدى جزر الأميرات في تركيا على البوسفور أتناول سندوتش شاورمة عندما حطَّ سرب من الحمام أمام مقعدي المواجه للبحر.. من الطبيعي أن الحمام في معظم بلاد ربنا لا يفزع من الناس، ولا ينطلق محلقاً عندما يقتربون منه؛ لأنه اعتاد أن الاقتراب دائماً ما يحمل الخير ويقترن بالطعام الذي يُلقى له، وذلك على العكس مما يحدث لطائر السلام عندنا في مصر.. لذا فإن مشهد الحمام يلتقط الحب في الميادين ويرفرف بالقرب من الناس هو من المشاهد التي لا يمكن رؤيتها هنا، ولو حدث وتجرأت حمامة واقتربت من الناس أو غفلت لثوانٍ معدودة لوجدت نفسها بعد قليل محشوة فريك!

اقترب مني الحمام يطلب الطعام، ولما لم يكن معي حبوب تصلح لإطعامه فقد أخذت أقطع له لقيمات بالغة الصغر من السندوتش وألقيها أمامي فيندفع الحمام ويلتقطها في الحال. لاحظت أن من بين السرب توجد حمامة شرسة تختلف عن الباقين ويمكن القول بأنها الفتوة بين أقرانها. كانت ما أن يلامس الطعام الأرض حتى تنظر بحدة إلى الآخرين نظرات محذرة ثم تنقض على الطعام وتأكل معظم فتافيت الخبز ولا ينال سواها غير ما يلتقطه أثناء انشغالها!

لاحظت أنها كانت الأكبر في الحجم بين الجميع وأنهم يخشونها ويتجنبون إغضابها ولا يأكلون غير ما تسهو هي عنه، وعندما كانت إحدى الحمامات تتجاسر وتمدُّ منقارها إلى لقمة في نطاق الفتوة، فإن هذه كانت لا تتردد في أن تنقرها بقسوة! لهذا فقد كنت أقطع الكثير من الخبز وأنثره في دائرة واسعة لأعطي فرصة للآخرين أن ينالوا نصيباً من الطعام بعيداً عن الوحش الذي يتوسطهم..

أدهشني أن أجد في دنيا الحمام الوديع أو الذي نظنه وديعاً نفس الغباوة والطمع والأنانية الموجودة لدى جميع المخلوقات، ويبدو أننا اخترعنا فكرة كاذبة عن الحمام اطمأننا لها وصدَّقناها. بعد قليل كنت قد نثرت الرغيف كله للحمام ولم يتبقَّ في الورقة الملفوف فيها السندوتش سوى قطع الشاورمة التي قمت بإخراجها حتى أستطيع أن أطعم الحمام الخبز.

ما زال أعضاء السرب يحفُّون بي طلباً للمزيد، في حين أنني كنت أشد منهم جوعاً بعد أن نزلت لهم عن غدائي. فكرت في أن أقوم لأشتري لنفسي طعاماً آخر وأشتري للحمام علبة بسكويت، غير أنني خشيت أن هذا السرب قد يطير ويأتي غيره بعدما تعلَّقت به، فقررت أن ألقي لهم بقطع اللحم لأرى ماذا هم فاعلون! في البداية وجدتهم يتحرَّكون مع حركة يدي ويتجهون حيث تتجه ثم يقتربون من قطع الشاورمة المتساقطة في ريبة يتشمَّموها ثم يُعرضون عنها.. بعد قليل تشجَّعت كبيرتهم وتناولت قطعة بفمها وأخذت تضربها بالأرض لتقطعها، ثم لدهشتي التهمتها وتقدَّمت من غيرها وفعلت نفس الشيء. بعد ذلك اقترب البقية وتعاملوا مع الشاورمة بنفس الحذر الأوِّلي ثم لم يلبثوا أن اندمجوا وأخذوا يأكلون حتى نفدت قطع الشاورمة كلها.

لم أدرِ هل هذا طبيعي أم إن هذا السرب بالذات يتسم بالنزق وحب التجربة، لكني تصوَّرت أن الجوع قد يُخرج الكائنات عن طبائعها ويجعل أرق الطيور تأكل اللحم، وهي هنا تُعتبر في حكم المضطر الذي لا جناح عليه! كما أنه لا يُخشى من أن تتغير سمات الجنس كله فيصبح من أكلة اللحوم؛ لأنها مجرد مرة وعدّت. ومن يعلم ربما تدفع الضرورة حيواناً كالأسد ذات يوم إلى أن يأكل البرسيم لو لم يجد شيئاً آخر.

وعلى الرغم من أن هذه الفرضية لم تُختبر في الغابة بحكم أن الضواري لا تُعدم في أي وقت حيوانات ضعيفة تصلح كغذاء، إلا أنه من الممكن أن تُجرى تجربة هذا الفرض مع الحيوانات المفترسة الواقعة في الأسر. وبهذه المناسبة لا يفوتني أن أذكر أنه على الرغم من كون القطط والكلاب ليست من الحيوانات المفترسة فإن غرامها باللحوم لا يمكن إنكاره، والناس في الغرب الذين يكثر بينهم اقتناء الحيوانات الأليفة يهتمون بها ويشترون لها من السوبر ماركت الطعام الذي يتم تصنيعه خصيصى، ويكون في معظمه عبارة عن خليط من اللحوم والدجاج والأسماك، أما هنا فقد رأيت الكثير من القطط والكلاب بالبيوت تأكل مما يأكل منه أهل الدار، فتتناول راضية الخبز المغموس في الملوخية والقلقاس والفاصوليا كما تلتهم الأرز والمكرونة والكرنب، كما أنني رأيت أيضاً من يقوم بتربية الدجاج والبط ويترك قطته أو كلبه يعيش وسط الطيور، وقد يسهون عنه وينسون إطعامه، فلا يجد مفراً من أن يشارك الطيور طعامها، وربما لا يجوز للقطط والكلاب الضالة التي تأكل من الزبالة أن تحسد زملاءها ممن تأويهم المنازل إذا عرفوا أن هؤلاء يأكلون الذرة والبرسيم!

ولا عجب فيما سبق كله؛ لأن الدنيا تخلو من العدل، وربما أمكن في حياة أخرى للقطط المحرومة أن تأكل البسكويت في اللبن وللكلاب أن تأكل الدجاج، وقبلهم الإنسان أن يتذوق اللحم؛ لأن اختلال ميزان العدالة إلى جوار عبث الإنسان هو وليس غيره ما أفقد البقر الصواب ودفعه إلى الجنون بعد أن قام الظالمون بإطعامه.. بولوبيف!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يا لـهَوان الكتابة!

الشاعر الكبير سيد حجاب هو واحد من أبرز الشعراء في عصرنا، وأكثرهم موهبة وتوقداً. ظهرت بواكير قصائده منذ الستينيات، ودفع به إحساسه العالي وقدرته على تطويع المعاني إلى مقدمة الصفوف، كما غنَّى كلماتِه الكثيرُ من المطربين والمطربات. غير أن الجمهور الواسع لم يتعرَّف عليه من خلال دواوينه الشعرية مثل ديوان "صياد وجنيّة"، ولا من خلال ندواته ولقاءاته الثقافية، ولا حتى من خلال أغانيه المذاعة بالراديو.

وإنما اندلعت شهرته الواسعة وما صاحبها من حب الناس من خلال تترات المسلسلات التي كتب العشرات منها طيلة السنوات السابقة؛ مثل "ليالي الحلـــمية"، و"أرابيســـــك"، و"العـــائلة"، و"الأيـــام"، و"المرســـى والبحـــار"، و"الوسية"، و"بوابة الحلواني"، و"أميرة في عابدين"، و"الليل وآخره"... وغيرها.

وما ينطبق على سيد حجاب في هذا الشأن ينطبق أيضاً على شاعر كبير وأصيل هو عبد الرحمن الأبنودي الذي كتب أشعاراً ودواوين عديدة بداية من "الأرض والعيال" ثم "الرحمة" و"جوابات حراجي القط" و"أحمد إسماعيل" و"أنا والناس" و"سيرة بني هلال" و"المشروع والممنوع" وغيرها، كما كتب عشرات الأغاني لكبار المطربين، ومع ذلك فإن الجمهور الواسع تعرف عليه بصورة أكبر من خلال المسلسلات التي تابعها الملايين على الشاشة والتي شكلت مقدماتها ونهاياتها الغنائية جزءاً أساسياً من دراما الأحداث، ومنها مسلسل "أبو العلا البشري"، و"مسألة مبدأ"، و"النديم"، و"ذئاب الجبل"... وغيرها.

وأستطيع القول بأنه من بين كبار الشعراء أصحاب الذيوع والتأثير يقف الشامخ أحمد فؤاد نجم منفرداً بحسبانه الشاعر الوحيد الذي طبقت شهرته الآفاق وعبرت الحدود دون أن يساعده التلفزيون أو الإذاعة عندما كان ممنوعاً من الاقتراب منهما أثناء المنع والحصار الحكومي له ولصاحبه الشيخ إمام.. ولكن هذه الحالة تُعتبر استثناء، ولا تنفي فضل التلفزيون على المبدعين في إيصال أصواتهم للناس أسرع من أي وسيلة توصيل أخرى.

ولا يقتصر التأثير الواسع للتلفزيون على الشعراء وكتاب الأغاني فقط، لكنه طال أديباً موهوباً بحجم أسامة أنور عكاشة، بدأ حياته قاصاً وكاتباً للرواية لعدة سنوات كتب خلالها المجموعة القصصية "خارج الدنيا" عام 67 ورواية "أحلام في برج بابل" التي نشرت عام 1973 والمجموعة القصصية "مقاطع من أغنية قديمة" ثم رواية "منخفض الهند الموسمي" ورواية "وهج الصيف" وأخيراً "سوناتا لتشرين" التي نُشرت عام 2010 ، غير أنه قرر في منتصف الطريق أن يلج باباً جديداً يصل من خلاله إلى جمهور أوسع، فاتجه لكتابة الدراما التلفزيونية، وقد برع فيها وقدَّم أجمل ما عُرض على الشاشة من الفن الدرامي التلفزيوني من أول "أبواب المدينة" مروراً بـ"الشهد والدموع"، و"الحب وأشياء أخرى"، و"عصفور النار"، و"وما زال النيل يجري"، و"عفاريت السيالة"، و"كناريا وشركاه"، حتى عمله الأخير

"المصراوية". خلال هذه الرحلة الفنية الطويلة التي قدّم فيها عكاشة الرواية والقصة والمسرحية والتمثيلية والفيلم لم ينجح أي وسيط في أن يربط بينه وبين الجمهور بهذه الدرجة الحميمة سوى الدراما التلفزيونية التي قدِّمت على شكل مسلسلات جلس الناس في انتظارها خصوصاً في شهر رمضان.. وأشهد إن بعض مسلسلات أديبنا الكبير كانت تُخلي الشوارع من المارَّة في المدن العربية أثناء عرضها.

ويمكنني أن أشهد للتأثير الرهيب للتلفزيون في التعريف بالكتاب والشعراء في مجتمعاتنا التي تنخفض فيها نسبة القراءة إلى درجة مخجلة، بينما ترتفع نسبة المشاهدة إلى عنان السماء. وعن نفسي.. لقد كتبتُ القصيدة الشعرية والمقال الصحفي والرواية والقصة القصيرة، وكتبي بالمكتبات تحقِّق مبيعات عالية والحمد لله.. ومع هذا ففي العادة حين يسلِّم الناس عليَّ في الشارع فإنما يفعلون هذا معي باعتباري فلاناً الذي شاهدوه بالتلفزيون ضيفاً على برنامج كذا.. فيا لَهَوان الكتابة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أعمق من الفالق الأناضولي

حكى لي صديق، فقال: لم أكن أتصوَّر أن الدنيا يمكن أن تفعل بالناس ما حدث لنا في مصر. لقد كنا أسرة متوسطة عادية تربينا على الفضيلة والخير، ليس في حياتنا أي نوع من التهتك.. الستر هو القيمة الكبرى التي تعلو على ما سواها. الأولاد والبنات يذهبون إلى المدارس والجامعات. نجتمع حول التلفزيون لنشاهد الأخبار ومسلسل المساء. في الإجازات نشاهد فيلماً أو مسرحية السهرة. لسنا من روَّاد الحفلات الغنائية، لكننا نستمع إلى الطرب الأصيل والغناء الجميل من أم كلثوم وعبد الوهاب ومحمد فوزي وعبد الحليم.

تربَّينا على الصلاة وصوم رمضان وطاعة الأهل.. الخلاصة أننا أسرة طبيعية مثل ملايين الأسر. واستطرد الصديق في أسى: ثم تأتي الرياح من جزيرة العرب حاملة معها أفكاراً غريبة، فاجأنا الإخوة الذين استوردوها بأنها هي صحيح الدين الذي لم نكن نعرفه! فقالوا بحرمة الغناء والتمثيل والفن التشكيلي، وأفتوا بوجوب ارتداء النقاب وتغطية وجه المرأة، وأقاموا لأنفسهم جيتو داخل المجتمع أخذ يتَّسع ويتمدَّد، واستفاد في تمدُّده من انتشار العشوائيات، فضمَّها إلى زمامه حتى استولى على معظم مساحة الوطن، وأصبح هناك نوعان من المصريين هم "المصري المصري" و"المصري السعودي"، أو "أهل مصر" و"أهل قندهار".

وأضاف الصديق: المهم أن أسرتنا مثل معظم الأسر تشتتت ما بين من ظلُّوا على ولائهم للحياة العادية، وإن أضيفت إليها لمسة تديُّن ظاهري تمثَّلت في غطاء الرأس، وبين من رحلوا بفكرهم إلى أماكن عجيبة، ورأوا في جماعة طالبان المثال والقدوة، ليس في جهاد الأعداء والذود عن الوطن، ولكن في ضرورة هدم التماثيل والتنكر للعقل، والسمع والطاعة للجهلاء المأزومين نفسياً. وأكمل الصديق: لم أسمح للخلاف في شكل الحياة أن يبعدني عن أخي الأصغر الذي صار سلفياً له ذقن كثيفة مشعثة وبضعة زبيبات في جبهته، وزوجة وخمس بنات كلهنَّ منتقبات، وفي الحقيقة إن بناته تشبهن الملائكة في الجمال والأدب والتربية، غير أنهن معزولات عن العالم، ولا يعرفن منه غير الدروس الدينية ومعاهد إعداد الدعاة التي يرتدْنها، حتى إنني سألته مازحاً: إذا كنا كلنا سنكون دعاة فمن أين لنا بجمهور المستمعين؟

ومضى الصديق قائلاً: أقنعت نفسي بأنه ليس من الضروري أن يكون لنا جميعاً نفس النمط في الحياة.. المهم أن نحترم خيارات بعضنا بعضاً ولا يدعي أحد لأحدٍ بالهداية! سارت الحياة سيرها الطبيعي والتقيت في العمل بشاب مهذَّب، متدين ومثقف ممن شاركوا في الثورة، يقرأ في الأدب والشعر وفي علوم الدين، وأخبرني بانتمائه لجماعة الإخوان المسلمين.. بصراحة أحببت هذا الفتى لصدقه ونزاهته ورأيته يصلح عريساً لواحدة من بنات أخي، وكنت سعيداً بصراحة؛ لأنني لم أتوقع يوماً أن آتي بخطيب لواحدة منهنَّ، حيث إن معارفي يشبهونني بالضرورة ولا يشبهون أخي. المهم أخذت موعداً من أخي، وذهبت إليه ومعي هذا الشاب المصلي المنتسب لأسرة طيبة والمنتمي لجماعة الإخوان المسلمين..

كانت الجلسة طيبة تبادلنا فيها الأحاديث الودود، ثم أخذت الشاب وانصرفت؛ لأنها كانت مجرد جلسة تعارف قبل الكلام في صميم الموضوع.. اتصلت بأخي بعد ذلك متوقعاً أن يكون سعيداً بالشاب المهندس الخلوق المثقف، لكنه فاجأني باعتراضه؛ لأن الفتى لا يمانع في سماع الموسيقى الراقية ولا يرى بأساً في مشاهدة بعض برامج التلفزيون، في حين أن ابنته تقاطع هذه الأشياء مقاطعة تامة، وترى فيها رجساً من عمل الشيطان!

وأردف الصديق: صعقتني إجابته؛ لأنني كنت أتصوَّر أنني أتيت إليه بعريس من نفس فصيلتهم مستوفٍ للمواصفات، فإذا به وكأنه يريد عريساً من تورا بورا أو كادراً بتنظيم القاعدة! لم أتصور أن الدنيا يمكن أن تفعل هذا بالناس.. أهذا أخي الذي تربَّيت معه وشربنا من نفس المنابع في الصِّبا؟ ألا لعنة الله على من فرَّقنا وقسَّم عائلتنا إلى فسطاطين يطلب أحدهما للآخر الهداية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كـــتاوِت

كنت أحلم بأن نجعل العالم مكاناً أفضل.. الآن يكفيني أن يرصفوا شارع 9

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لا ملاك ولا شيطان

كل مرة أقرأ فيها خبرا عن استشهاد ضابط شرطة أثناء أداء واجبه تنتابني مشاعر متضاربة أولها الرثاء للضابط الذي سيكون في الغالب شاباً؛ لأن رؤساءه الكبار لا يشاركونه المخاطر، وإنما يقبعون خلف المكاتب في انتظار عودته المظفرة حتى يعلنوا للصحافة نجاحهم في حملة أمنية تمكَّنت من كذا وكذا، وفي اليوم التالي تكون أسماؤهم وصورهم متصدِّرة صحف الصباح وبرامج المساء.

لكن هذا الشعور بالحزن والرثاء لا يأتي وحده، وإنما تصاحبه حزمة تأملات وتفلسفات ترى الصورة من عدة أوجه.. وأول ما يرِدُ على الخاطر هو فكرة أن ضباط الشرطة ليسوا شياطين فقط كما يتصوَّر عموم المصريين، وإنما من بينهم من يقتحمون الأخطار ويضحُّون بحياتهم لأجل أن ينعم الناس بالأمن. غير أن هذه الفكرة سرعان ما تتبدَّد لتحلَّ محلها فكرة أكثر نضجاً وواقعية، وهي أن ضباط الشرطة لا ينقسمون إلى شياطين وملائكة أو إلى قساة غلاظ ورحماء طيبين، وإنما الوضع أكثر تعقيداً من ذلك، فمن الوارد أن الضابط الذي لقي حتفه على يد عصابة مخدرات أو أثناء مطاردته قاتلاً أو لصاً مع ما في عمله هذا من رجولة وفداء وتلبية لنداء الواجب.. أقول من الوارد أن يكون نفس الضابط قبل الخروج في مهمته تلك قد قام بإهانة متَّهمين كان يحقِّق معهم، وقد يكون تعدَّى عليهم بالقول، وقام بسبِّ دين أهاليهم أو انفعل، فسدد لهم الصفعات وكال لهم اللكمات والركلات، وهو يتصوَّر أنهم حلال طيب له، ما دام يؤدي واجبه في خدمة العدالة وحفظ الأمن!

هذه هي الصورة الواقعية التي لا تلفت انتباه أحد؛ إذ إن الحديث يكون دائماً إما عن الوطنية والتضحية والفداء أو عن الخسَّة والنذالة والتجبُّر على الضعفاء، ولا يتوقَّف أحد عند الحياة الحقيقية كما هي لا كما يريدها أهل الحكم أو ضحاياهم. وقد عبَّر عن هذه الصورة أجمل تعبير الفيلم الأمريكي البديع "كراش" الذي أنتج منذ بضع سنوات وأخرجه بول هاجيز..

يتناول الفيلم ضمن معالجة بانورامية للقطات من الحياة في أمريكا قصة ضابط شرطة محبط؛ بسبب ضغوط الحياة ومرض والده. نرى في الفيلم هذا الضابط وهو يستوقف زوجين من ذوي البشرة السوداء، ويقوم بتفتيشهما بنوع من التجاوز، ثم يمعن في الإهانة من خلال انتهاك جسد السيدة أثناء التفتيش، الأمر الذي يؤدي إلى إصابة الزوجة بشرخ نفسي مما حدث لها على يد الضابط القاسي وكذلك بسبب سلبية زوجها التي جعلته يرى زوجته تتعرَّض للإذلال ولا يحرِّك ساكناً لردع الشرطي.. بعد ذلك تسوء العلاقة بين الزوجين وتقف التجربة السيئة مع الشرطي حاجزاً يحول دون استئناف حياتهما بشكل طبيعي، إلى أن يأتي يوم تتعرَّض الزوجة لحادث كبير على الطريق يؤدي إلى انقلاب سيارتها وتظل عالقة داخل السيارة بعد أن تفشل كل محاولاتها للخروج، بينما البنزين يقطر من خزان البترول منذراً بكارثة وشيكة.. في هذه الأثناء يتقدم شرطي شاب غير مبالٍ بالموت حرقاً في أي لحظة فيما لو انفجر خزان الوقود، وينزل تحت السيارة ويقوم بكل جسارة بفك الاشتباك بين السيدة وبين الحزام الذي يقيِّدها ثم يساعدها على الخروج.. وهنا

تكتشف المرأة أن هذا الشرطي الفدائي هو نفس الشرطي اللعين الذي بعثر كرامتها منذ أيام وجعلها تكره الحياة!

هذه اللقطة في واقع الأمر واحدة من أكثر اللقطات التي صوَّرت الإنسان دون رتوش، وقدَّمته على حقيقته بعيداً عن الكليشيهات المحفوظة، فالضابط الذي تصرَّف بفظاظة في أحد المواقف تحوَّل في موقف آخر إلى النقيض، وكان مستعداً للتضحية بحياته من أجل نفس الشخص الذي قام بإهانته دون سبب. ولئن كان هذا النموذج في أمريكا نموذجاً استثنائياً حيث المحاسبة والعقاب لا تسمح للضابط عادةً بهذه الشيزوفرينيا، فإن ضباطنا في الغالب ممزَّقون بين تعاليم الآباء المؤسسين بالداخلية التي توصي بالقسوة، وبين تربية الأهل التي حفظت الخير داخلهم، فكانت النتيجة ضابطاً يُهينك بمنتهى البساطة.. ويموت من أجلك بنفس البساطة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

والله ونَلتها يا قفة!

هناك من الحكام الطغاة من بدؤوا عهودهم زهاداً متواضعين، غير أن المنافقين والشماشرجية دفعوهم دفعاً لأن يتغيَّروا بعد أن صوَّروا لهم عبر موجات النفاق الكاسح أنهم عباقرة ملهَمون، وأنه ليس مثلهم بشر آخر، وأن لهم رسالة بعثتهم الأقدار لتبليغها والقيام عليها. من هذا النموذج سفاح ليبيا معمر القذافي الذي كان يظنُّ حقاً أنه فيلسوف ومفكِّر وأديب وقائد أممي وعميد حكام العالم! لقد أقنعه المنافقون بذلك فصدَّقه وغاب في بحر الضلالات والهلاوس لسنوات طوال دفعت ليبيا ثمنها من رخائها وتقدُّمها، حتى كانت النهاية الفاجعة للشيطان المجنون.

أما بالنسبة لحسني مبارك فالأمر يختلف اختلافاً بيِّناً، فتأثير النفاق عليه وردُّ فعله هو على المداحين وحملة المباخر لم يكن نفسه بالنسبة لشخص كالقذافي.. لم يكن مبارك مجنوناً ولم يفقد عقله لحظة واحدة، كما أن النفاق لم يُسكره ولم يُفقده توازنه؛ ذلك لأنه بدا دائماً أكثر دهاء ومكراً من كل جوقته الفاسدة، ويمكنني أن أزعم أن كل ما حدث لمصر من خراب على مدى سنواته الملعونة يُعْزى في جانب منه إلى أن الرجل لم يصدِّق المنافقين ولم يقتنع بما نسبوه إليه من ذكاء وحكمة، وبأنه عظيم العظماء وأذكى الأذكياء وصاحب نظريات تصلح لقيادة العالم وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور!

ربما لو كان اقتنع لحاول أن يقدِّم خيراً من أي نوع للناس يحملهم على مزيد من الإيمان به، لكنه لم يصدِّق. وفي ظني أنه كان يسخر منهم في داخله كلما تحدثوا عن حكمته وبُعد نظره؛ لأنه شخصياً يعلم ابتعاده عن الحكمة ومنابعها.. إلا لو كانت الحكمة هي أكل الطعام وهضمه والنوم والشخير! وكان بالتأكيد يهزأ بمن يزعمون أنه راعي الثقافة وعمُّ المثقفين؛ لأن آخر كتاب قرأه في حياته هو كتاب المطالعة الرشيدة!

ثم إنه يدرك عن نفسه كراهيتها للقراءة والتفكير الذي يُزعج العقل الساكن المستريح. كذلك كلامهم عن رعايته للفقراء وسهره الليل يفكر في حلول لمشاكلهم.. كل ذلك لم يكن يستدعي سوى ازدرائه وسخريته.. بساطة لإدراكه أن هؤلاء الفقراء لم يكن لهم أن يعانوا بهذا الشكل الحاد لو لم يقم هو وأفراد أسرته وأصدقاؤهم بسرقة فلوس السكن والعلاج والتعليم ومياه الشرب والصرف الصحي وتطهير الترع. الخلاصة أم مبارك لم يكن يسكره النفاق، لكنه مع ذلك كان يكافئ المنافقين؛ ليركبهم ويكسر نفوسهم مقابل فلوس لم يدفع من جيبه منها شيئاً، وكذلك حتى يُعوِّد الناس على الانحراف وسوء الخلق ويضرب لهم الأمثال الوضيعة!

وهناك حكاية مشهورة كان يتداولها الناس منذ بداية حكم المخلوع حكت عن امرأة طيبة فرحت بقيام ثورة يوليو عام 52 فكانت تخرج مع الجماهير لتحية الرئيس محمد نجيب وهو يمر بسيارته العسكرية المفتوحة من أمام شارعهم.. كانت المرأة تهتف للرئيس وهي ممسكة بيد ابنها "قُفّة" الذي بدت عليه علامات التبلُّد والغباء، وكانت تنظر للرئيس ثم تنظر للولد، وتطلب من الله أن يُنعم عليها فترى الولد "قفة" وقد صار رئيساً محبوباً مثل محمد نجيب!

تمر الأيام ويأتي الرئيس جمال عبد الناصر، فتخرج له مع الخارجين تحييه على الطريق وهو يعبر شارع بورسعيد وبصحبته الرئيس الروسي خروشوف.. تهتف له من قلبها وتنظر بحب للولد "قفة"، ثم ترفع رأسها للسماء داعية الله أن يأتي اليوم الذي يكون لولدها قفة موكب كهذا يقف الناس أمامه بالساعات؛ لتحية الرئيس والهتاف له..

تمضي الأيام ويأتي الرئيس المؤمن أنور السادات.. ولا تتخلف المرأة عن الخروج لتشهد مرور موكبه بشارع رمسيس، ولا تتخلف أيضاً عن الدعاء للولد قُفّة.

تمرُّ السنين وتموت المرأة، لكن موكب الرئيس ما زال يعبر الشارع والناس مصفوفة لتحيته.. وهناك في الركن على الرصيف يقف شرطي عجوز وعلى وجهه ابتسامة ساخرة.. يمرُّ بذهنه شريط الذكريات ثم يتنهد ويقول: "إيييه.. والله ونُلتها يا قفة"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رد فعل مَرَضي على ظاهرة مَرَضية

الحديث الدائر الآن حول الحكم بحبس الممثل عادل إمام بتهمة ازدراء الإسلام في أفلامه يفتح الباب لمناقشة دور الفن في المجتمع وقدرة السلطات السياسية في بلاد العالم المختلفة، الديموقراطي منها والقمعي على استخدام السينما كوسيلة دعائية لجذب المشاهدين إلى أفكارها والنمط الذي تروِّجه للحياة، وكذلك لتشويه الخصوم وتنفير الناس منهم.

بهذا المعنى فإن عادل إمام كان أداة دعائية مهمة من أدوات النظام القمعي الذي حكم مصر طوال ثلاثين عاماً لعينة. ولا يمنعني انتقادي للتيار الإسلامي في الكثير من المواقف والسلوك من الإقرار بأن الدور الذي لعبته السينما لتشويه ذلك التيار كان دوراً مشيناً.. وفي رأيي أنه يكفي أن نمنح التيار الإسلامي فرصة الوجود لتقوم بعض فصائله بتشويهه وتقديمه في صورة مخيفة من خلال من يسبُّون نجيب محفوظ ويصفون أدبه العظيم بالدعارة، ومن خلال من يؤذِّنون في البرلمان، ومن خلال من يتخلَّون عن الثوار، ويؤيدون من يقتلهم ويصفِّي أعينهم في الشارع.. لستَ في حاجة إذا كنت حاكماً رشيداً لاستخدام المشخصاتية في تجريح خصومك وشيطنتهم وإظهارهم في صورة الوحوش البشرية..

وفي هذا الخصوص يظهر لي فيلمان قاما بهذا الدور بامتياز أولهما هو فيلم "الآخر" ليوسف شاهين، وهو نموذج كلاسيكي للأفلام الفاشية التي تعتمد على الكذب ولصق كل الأوصاف البغيضة بالخصوم السياسيين من أبناء وطنك، وثانيهما هو فيلم "الإرهابي" بطولة عادل إمام.. ولعلني قد عرَّفت الفيلم الاول بمخرجه والثاني ببطله؛ بسبب أن يوسف شاهين دأب على تنحية جميع عناصر الفيلم وأولها الممثلون ليظهر هو وحده، كما أن عادل إمام كان دائماً هو العنصر الأساسي في أفلامه، فهو لا يترك المؤلف والمخرج والمصور والمونتير يفعلون إلا ما يريد!

كان عادل إمام إذن في أفلامه التي أراد لها أن تبتعد عن الهلس وتتبنَّى وجهة نظر سياسية مناصراً لسلطة مبارك المغتصبة للحكم في حروبها ضد الإسلاميين، وكان في تناوله يبتعد كل الابتعاد عن الموضوعية ويقدِّم وجهة النظر التي ترضي مباحث أمن الدولة، وتُسعد سيد الأنطاع وأسرته الحاكمة. وحتى بعيداً عن الفن والتمثيل كانت المواقف السياسية المعلنة للممثل الذي أوعز إلى صهبجيته في الصحافة أن يسمُّوه "الزعيم" كلها مواقف مشينة تتنكَّر للعدل والإنصاف وتناصر الظلم والعدوان، ولعل تذكير القراء بتصريحاته هو وأحمد أبو الغيط حول كسر رجل أي فلسطيني يلوذ بمصر هرباً من عدوان إسرائيل وقصفها لغزة بالفوسفور الأبيض توضِّح مواقف عادل إمام السياسية، وكذلك تأييده اللامحدود لجمال مبارك ومشروع توريثه حكم مصر.. هذا فضلاً عن معاداته للثورة وبقائه على ولائه لأسرة مبارك حتى والشوارع غارقة بدماء الثوار التي أسالها المخلوع. لكن هل كل هذا يبرِّر الفرحة والشماتة في الحكم الصادر ضدَّه بالحبس عن أفلامه التي اتُّهم بسببها بازدراء الإسلام؟

في الحقيقة إنني لست سعيداً بهذا الحكم، ولا أظن عادل إمام قد ازدرى الإسلام بقدر ما ازدرى شعب مصر، ولا أراه إلا تعبيراً عن الاستمرار في نهج مبارك ونهج عادل إمام نفسه في ضرب الخصوم باستعمال وسائل القوة المتاحة، واستغلال المناخ المناصر للإسلاميين بعد رحيل مبارك وشماشرجيته وأفول عصره الأسود. وكنت أتمنى للإسلاميين أن يتركوا عادل إمام ليذوي ويذبل في هدوء، خاصة أن مشروعه السينمائي بشقّيه "الهلس والسياسة" قد آذن بالرحيل، ولم يعد له مستقبل بعد الثورة، لكن يبدو أن الرغبة في الانتقام وتصفية الحسابات كانت غالبة، أما التسامُح والترفُّع وكظمُ الغيظ والعفوُ عن الناس فلا مكان له إذا ما تمكَّن الإسلاميون..

لهذا لا يسعني إلا النظر إلى الحكم ولحالة الشماتة المصاحبة له إلا بحسبانها ردَّ فعل مَرَضي للطرف المنتصر على ظاهرة مَرَضية اسمها أفلام عادل إمام السياسية!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أنانيــة البشــر

يتساءل المرء أحياناً عن أي المراحل في حياتنا كانت أفضل.. هل هي فترة حكم الرئيس عبد الناصر التي امتلات بالفخار الوطني والهزائم المروِّعة، أم فترة حكم السادات التي فتحت للشره أبواباً كانت موصدة؟ أم سنوات الخراب الشامل تحت حكم سيد الأنطاع؟

سبب سؤالي هو أن الناس لم تكن راضية عن حياتها في أي من الحقب الثلاث، على الرغم من اختلاف الحقبة الأولى عن السنوات التي تلتها. ولعلّ انهيار دول المعسكر الشرقي وتحلُّل الاتحاد السوفييتي يوضِّح لماذا لم تكن الناس سعيدة في الفترة الناصرية رغم أن الحكم كان وطنياً.. الحُكم الذي لا يأخذ في اعتباره أنانية البشر ونفاد صبرهم لا يُكتب له الاستمرار، حتى لو كان يوفِّر للناس احتياجاتهم الأساسية بأسعار رخيصة، ويقدِّم لهم التعليم والعلاج بالمجان. دول المعسكر الشرقي قدَّمت للناس كل هذا علاوة على قاعدة صناعية وملاعب خضراء ومعامل بحث ومختبرات علمية وأبطال في كل الرياضات. ومع أن الحكم الناصري لم يقفز بمصر في أي من هذه المضامير إلا بقدر محدود إلا أن فلسفة الحكم الاجتماعية راعت الفقراء ولم تسحقهم، لكن التشابه بين مصر في الستينيات ودول الكتلة الشرقية يتمثل في أن كليهما ضنَّ على المواطن باللبان الشيكلتس وعلب الكولا وأكياس الشيبسي وبنطلونات الجينز والسجائر المارلبورو.

صحيح أن غياب الحريات السياسية كان عاملاً أساسياً في الانهيار، لكني أعتقد أن السلع التافهة السالف ذكرها كان لغيابها أثر في عدم دفاع الناس عن مكاسبهم التي حققوها، فتركوها تتفرط وجروا وراء الأوهام. دليلي على هذا مشاهد رأيتها بعيني وكانت من فرط كوميديتها تدفع للبكاء.

لا أنسى بورسعيد عندما تحولت إلى ما أسموه مدينة حرة مارست حريتها فقط في تجارة السلع المستوردة التي كان الناس متعطشين لها. كان من المناظر المألوفة في ذلك الوقت أن تجد في موقف سيارات أحمد حلمي حيث الحافلات وسيارات البيجو التي تحمل المسافرين إلى بورسعيد أناساً يُفترض أنهم محترمون، وقد نزل كل منهم من بيته مرتدياً بيجاما مهلهلة وشبشباً ممزقاً، أو قميصاً وبنطلوناً لا يقبل زبَّال ارتداءهما، ثم يسافرون إلى المدينة الحرة ويعودون وقد ارتدى كل منهم طبقات من القمصان فوقها حُلة راقية من ماركة فاخرة، ومعطفاً باذخاً مع حذاء آخر موضة، وذلك بعد أن خلع كل منهم الأسمال التي كان يرتديها، وألقى بها في إحدى الخرابات التي قام بتغيير ملابسه فيها!

كان البعض يحضر الملابس لنفسه وبعضهم يأتي بها للمتاجرة والخروج بمكسب من بيعها، والنوعان كانا يلجآن لهذا السلوك؛ من أجل الهروب من الجمارك، إذ كيف يمكن لموظف الجمرك أن يحاسب شخصاً على ملابس يرتديها؟

رأيت أيضاً في ذلك الوقت تجارة الشنطة التي نشطت من بيروت ولندن وغيرها من العواصم، وكان أبطالها من العاملين بشركات الطيران الذين يحصلون على

تذاكر مجانية بحكم الوظيفة. كان تجار شارع الشواربي يتعاقدون مع الموظف أو العامل من هؤلاء على دفع ليلتين بالفندق، ثم تحميله بحقائب الملابس التي كان عليه أن يعبر بها من الجمرك بطريقته حتى ينال المكافأة من التاجر بعد توصيل البضاعة إليه.

ولا أنسى أبداً منظر الحاج صابر -وكان يعمل ساعياً بالمطار- وهو عائد من بيروت مرتدياً ثلاث بدلات فوق بعض، بالإضافة إلى معطف من الصوف الإنجليزي، وذلك في شهر أغسطس حيث الجو قائظ ودرجة الحرارة نار.. لقد سقط الرجل مغشياً عليه بعد أن خنقته البضاعة التي سعى إلى إخراجها دون دفع الرسوم الجمركية!

إلى هذا الحد كانت رغبة الناس جارفة إلى الملابس والأشياء المستورَدة، وكان شوقهم عارماً إلى ما تصوَّروه الحياة الجميلة المليئة بالسلع. لذلك أتصوَّر أن على أي رئيس وطني قادم لمصر أن يضع في اعتباره وهو يحاول تحقيق النهضة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية أنانية البشر ونفاد صبرهم وتفضيلهم للخرز الملوَّن على القمح والطحين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الكتابة المنتظمة

الكتابة اليومية تضيف إلى محترفها شيئاً من البلاهة التي تبدو عليه في الشارع وفي المول أو بالمقهى؛ فالرغبة في اقتناص فكرة وبناء موضوع عليها تجعل الشخص يحملق في أشياء ليس بها ما يستحق الحملقة، وتجعله ينظر إلى أعمدة النور بالشارع نظرات مريبة، كما تدفعه للتوقف والتفكير إذا ما ألقى عليه شخص تحية المساء، فلعل طريقة إلقاء التحية تصلح مدخلاً للحديث عن البشاشة أو الحديث عن التجهُّم وأهميتهما في حياة البشر. كل هذا يساهم في تعقيد الحياة ويدفع الشخص إلى مزيد من الشرود، ويجعل الهمسات عن غرابة أطواره تتحوَّل إلى كلمات مسموعة، خاصة والناس يرونه ويسمعونه يتكلَّم مع نفسه، ثم يشفع كلامه بحركات الأيدي وتقلصات الملامح والضحك من حين لآخر.

لهذا كثيراً ما فكرت في التوقُّف عن هذا اللهاث والاكتفاء بالكتابة مرة في الأسبوع. وعندي للانتصار لهذا الرأي مبرِّرات كثيرة منها أن الكاتب يحتاج إلى مساحة من التأمُّل والتمثل والهضم، ويحتاج إلى الابتعاد قليلاً حتى يرى بوضوح أكثر، كما يحتاج إلى التوقُّف لشحن البطاريات بين كل مرة كتابة وأخرى، وهذا بطبيعة الحال في صالح القارئ أيضاً الذي قد يصيبه الملل، خاصة إذا ما تعرَّض الكاتب لفقدان الحاسة التي تُلهمه أن ما يكتبه معقول، ولم يصل بعدُ لحدود الهراء!

ومع هذا فإنني ما أن أصل لهذه النقطة حتى أردَّ على نفسي قائلاً: وهل نسيت يا رجل أنك عندما كنت مرتبطاً بالكتابة مرة واحدة في الأسبوع دأبت على إضاعة الأسبوع كله في الدردشة مع الأصدقاء وقراءة الكتب ومشاهدة الأفلام دون أن تكتب كلمة واحدة إلا في اللحظات الأخيرة المتبقية على موعد تسليم المقال؟!

ثم أواصل الحديث إلى نفسي: وهل نسيت أن الكتابة المنتظمة مرة أو أكثر يومياً لأكثر من صحيفة ومجلة مع الانهماك في الوقت نفسه في إعداد الكتب والمجموعات القصصية قد ساهمت في تحسين لياقتك الذهنية وقامت بشحذ أفكارك وجعلتك تستدعي مخزوناً لم تكن أنت نفسك تتصوَّر وجوده؟

فلماذا كلما شعرت بالتعب جعلتَ من نفسك ضحية وألقيت باللوم على العمل اليومي وكأنه سبب الشرور في هذا العالم، مع أن كل الناس تعمل يومياً دون شكوى.. وأنت في النهاية لم تأت بالتايهة ولا قدَّمت حلولاً لمشكلات البشرية! عند هذا الحد أكون قد شعرت بالزهق من القرين الذي يحاورني، وبدأت أستعد للتسليم بوجاهة رأيه الصادم، خاصة وأنا أعلم أن الكتابة مرة واحدة أسبوعياً كثيراً ما ضايقتني عندما كانت ترد على خاطري أفكار معقولة في منتصف الأسبوع، وكنت أتكاسل عن كتابتها أو حتى تسجيلها حتى ضاعت إلى الأبد! وهذا في الحقيقة ينقلني إلى مسألة أخرى تتعلق بتسجيل الأفكار التي تصلح للكتابة، تلك التي بدأتُ أقوم بها مؤخراً بعد أن أفقدني العناد الكثير مما كان يمكن أن يُنتج أشياء لا بأس بها. كانت الفكرة بنت الحلال تأتيني بينما أقود السيارة مثلاً، فأفرح بها وأكاد أقفز من السعادة، ثم أقوم بتدويرها في رأسي وأبلورها، وبعد ذلك أنشغل في الطريق والمشاوير التي أقضيها، وعندما أعود إلى البيت أكون قد نسيتها تماماً، وعبثاً أحاول استردادها.

قد لا تصدِّقون أن هذا حدث مئات المرات، وربما كان السبب في عدم مبادرتي إلى تسجيل الأفكار أو لمحة منها على ورقة هو الرغبة في التشبُّث بالفكرة الطيبة عن الذهن الصافي الذي كان، والعقل الحاد الذي صاحبني من زمان، والعناد في التسليم بفكرة أن كل شيء يصيبه البلى، ويطبع عليه الزمن بصماته، وأنه ليس من الشجاعة إجهاد الذهن المكدود في محاولة التذكُّر بدلاً من ادِّخار خلاياه للكتابة نفسها. المهم أنني بدأت أتواضع وأكتب الأفكار على القصاصات الورقية التي يتصادف وجودها بجيبي.

ولا أنكر أن هذه العادة الجديدة كان لها الفضل في إمدادي بقدر طيب مما يمكن البناء عليه، لكن المشكلة التي ظهرت هي أنني كثيراً ما عجزت عن قراءة الوريقات التي سجَّلت عليها الأفكار بسرعة، وفشلت في فكِّ الشفرة التي كتبتها بنفسي! والأغرب أن هناك ما استطعت قراءته بوضوح ومع ذلك وقفت عاجزاً عن فهم معنى الكلمات وما قصدته بها. ولقد طمأنني على أنني لست وحدي في هذا الأمر ما قرأته للصديق الكاتب الرائع أحمد خالد توفيق في أحد مقالاته عندما كشف أن أوراقه التي يشخبط عليها الأفكار التي ينوي كتابتها كثيراً ما كانت غير مفهومة له أيضاً.. هذا غير أن هذه الأوراق عندما تقع في يد أحد فيطَّلع عليها ويقرأها فإنه كثيراً ما تأخذه الظنون بصاحبها، فيظنه مجنوناً أو قل يتأكد أنه مجنون، وربما تصوَّره يدير عصابة أو يخطط لسرقة بنك!

عموماً وجدت حلاً لهذا الأمر فأصبحت أكتب أفكاري على التليفون المحمول في المكان المخصَّص للملاحظات، وحسمت مسألة الكتابة المنتظمة، فنويت أن أتوقف في فترة مقبلة لعدة شهور عن الكتابة بالصحف أكون قد أنجزت فيها عملاً أدبياً بدأته منذ سنتين ولا أستطيع إكماله.. والتساهيل على الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فنّ تخريط البصل على القلوب

الأمريكان سادة السينما في العالم بلا منازع، وقد استخدموها لتكريس مفهوم العولمة، ولم يترددوا في جعل الأفلام السينمائية شرائط دعاية مجانية للسياسة الأمريكية.

وفي هذا الشأن يمكنني أن أرثي لخصوم الأمريكان الذين يواجهون صراعاً غير متكافئ يتحوَّلون فيه على يد صُنَّاع الأفلام إلى وحوش بشرية في منتجات سينمائية تستخدم الصور والألوان والحوار والموسيقى والمؤثرات؛ لإقناعك بفكرتهم وجعلك تكره أعداءهم وترثى لضحاياهم، مستبعداً تماماً فكرة أن هناك ضحايا على الجانب الآخر قام الأمريكان بقتلهم دون رحمة.. ومعظمهم -مع الأسف- من المدنيين!

من هذه النوعية الفيلم الأخير للممثل توم هانكس مع ساندرا بولوك واسمه:

Loud and close

يقوم بدور البطولة في الفيلم طفل صغير يعاني من فقد والده ولا يستطيع مواصلة الحياة بعد رحيل الأب الذي كان يمثِّل كل شيء في عالمه، وقد انهار هذا العالم بفقد هذا الوالد. الفكرة عادية وتم تقديمها في السابق، غير أن صناع الفيلم قد أمكنهم أن يُبكوا كل من في صالة العرض طوال مدة الفيلم باللعب على المشاعر؛ لأن هذا الوالد المتوفَّى كان أحد ضحايا انهيار مبنى مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من سبتمبر 2001! الفيلم محبوك بحرفية عالية، ولا يتعرَّض بشكل مباشر لمن قاموا بالهجوم وتفجير الطائرة في البرج، لكن يتركك طول الوقت تلعن الإرهابيين القتلة (وهم كذلك بالفعل) الذين حرموا هذا الطفل من والده دون ذنب جناه، كما حرموا الزوجة الشابة من رجلها العطوف المحب. لا يملك المرء وهو يشاهد أفلاماً كهذه أن يتجاهل فكرة أن قصف ملجأ العامرية ببغداد بواسطة الطائرات الأمريكية وقد كان يعجُّ بمئات النساء والأطفال دُفِنوا جميعاً تحت الأنقاض كان يصلح لعمل عشرات الأفلام، وكذلك الغارة الإسرائيلية على قرية قانا التي كان كل ضحاياها من الأطفال، والقصف الإسرائيلي بقنابل الفوسفور الأبيض لمركز الأمم المتحدة لتوزيع الغذاء على المدنيين في غزة، وبالطبع هناك الغارة الشهيرة للصهاينة على مدرسة بحر البقر الابتدائية بمصر، والتي أوقعت تلامذة المدرسة الصغار جميعاً ما بين قتيل وجريح... كان من الممكن إنتاج أفلام عديدة يتناول كل منها أحد ضحايا واحدة من هذه المجازر ويأتي على سيرته ويقدِّم نموذجاً ليوم عادي في حياته وهو يستذكر لأطفاله دروسهم، بينما الأم منهمكة في تحضير السندوتشات للأسرة، وأشياء من هذا القبيل.. لكن ما منع تقديم مثل هذا العمل أن العرب ليسوا متخلفين سينمائياً فقط، وإنما هم قد أصبحوا فاقدين للهمة أيضاً! وفقدان الهمة هذا فضلاً عن تواطؤ الحكام منع السينمائيين العرب من اتخاذ أي واحدة من المذابح -وما أكثرها- التي تعرَّض لها العرب والمسلمون على يد إسرائيل مادة سينمائية خصبة تُستخدم فيها نفس أدوات السينما التي تنفذ إلى القلوب، وتقدِّم العرب في صورتهم الحقيقية كضحايا للإرهاب معظم الوقت، وليسوا كإرهابيين كما برعت السينما الأمريكية الصهيونية في تقديمهم.

إنني أتصوَّر أن عرض هذه الأفلام الأمريكية المصنوعة ببراعة للجمهور العربي مع غياب إنتاج فني يقدِّم قصص وحواديت الثكالى من أبناء جلدتنا قد ساهم في إحداث تعاطف لدى جانب كبير من الجمهور لدينا مع المآسي الأمريكية والإسرائيلية، والتي هي في النهاية ردُّ فعل محدود الأثر على مجازر رهيبة وقعت بحق الإنسان العربي.. وقد ساهم هذا التعاطف في حرف وعي الناس عن حقيقة انتمائهم الذي يعيه أعداؤهم جيداً بكل أسف، وساهم في انصراف المواطن العربي عن متابعة القصف الإسرائيلي اليومي لقطاع غزة بعدما أصبحوا ينظرون للمأساة الفلسطينية على أنها أصبحت تقف عائقاً في سبيل استمتاعهم بالحياة دون تنغيص، وعائقاً أمام إقامة علاقات كاملة بالشقيق الإسرائيلي الذي أصبحوا ينظرون إليه بإعجاب! وهذه في الحقيقة هي الهزيمة الحقيقية التي لعبت السينما فيها دوراً أساسياً، حيث دأبت على تخريط البصل على قلوبنا وقلوب المشاهدين في كل مكان؛ لتكريس فكرة العربي المتوحِّش، وذلك قبل قتله وسط ترحيب الجميع!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العربي كتاوت.. ونِبْلة الماكوكو!

"العربي كتاوت" هو ميكانيكي سيارات ماهر يجيد إصلاح الأعطال ويستطيع فكَّ شفرة أي سيارة ومعالجة الخلل بها في وقت قياسي، لهذا فإنني أثق به وأتعامل معه من زمان. غير أن هناك عيباً خطيراً في العربي كتاوت، ولا بد أن تكون محباً له حتى تحتمل هذا العيب. عيبه أنه فشار كبير يُدمن تأليف القصص الخيالية على نهج أبو لمعة الأصلي النجم الشهير لبرنامج "ساعة لقلبك". في زيارتي الأخيرة له بورشته الكائنة بحارة "سباخ ناشف" أخذ -بينما يقوم بإصلاح سيارتي- يحكي لي حكاية النبلة الجديدة التي شاهدها في أدغال إفريقيا عندما كان يساند الثورات هناك ويحارب في صفوف الثوار في السبعينيات ضد حكم الماكوكو. سألته: أي ثورة هذه؟ قال: ثورات كثيرة وقد شاركت فيها كلها. قلت: وهل قامت هذه الثورات ضدَّ حاكم اسمه الماكوكو؟ أجاب: الماكوكو هو اسم القبيلة، أما الحكام فلا أتذكَّر أسماءهم. قلت له: وهل حاربت إلى جوار الشعوب الإفريقية يا كتاوت؟ قال: طبعاً حاربت إلى جوارهم.. هل نسيت أننا ننتمي إلى القارة السمراء وأننا أفارقة مثلهم؟ ثم أضاف في لهجة مؤثرة: لقد تأسَّيت في هذا بما فعله الثائر جيفارا الذي كان يحارب الظلم والطغيان في أمريكا الجنوبية كلها، وليس في بلده فقط، حتى إنه لقي مصرعه وهو يحارب في بوليفيا بعيداً عن وطنه الأصلي.

قلت له: وما موضوع النبلة التي شاهدتها هناك يا أسطى كتاوت؟ قال: كان ولاد الإيه محاربو الماكوكو يستخدمون ضدنا نوعاً من النبال المتطوِّرة التي يضعون بها قطعة حديد، ثم يشدون النبلة، ويطلقون الحديدة التي كانت عند اصطدامها بالجسم تخترقه وتبحث عن الكلى والكبد فتجري، وتختبئ داخلها وتحدث للمصاب تمزقات تؤدي إلى الوفاة. سألته مشدوهاً: هل كان لنبلة الماكوكو كل هذا التأثير؟ قال: وأكثر من هذا، وربما لن تصدِّقني إذا قلت لك إن جنود الماكوكو لم يكونوا يستخدمون العربات أو المركبات في هجومهم، وإنما كانوا يقتحمون تحصيناتنا ويطلقون علينا نبالهم الحديثة وهم يعتلون ظهور السباع والنمور وكل أنواع الضواري؟

قلت في دهشة: يا لها من ذكريات يا أسطى.. أعتقد أن عودتك سالماً بعد كل ما واجهت تُعتبر من قبيل المعجزات. قال: إن رب العرش نجاني، لكن من قال إنني رجعت سليماً؟ لقد أصبت أكثر من مرة، وما زال الكثير من قطع الحديد قابعاً في جسمي بعد أن خشي الأطباء من استخراجه خشية حدوث مضاعفات. قلت: لماذا لا تكتب مذكراتك يا كتاوت حتى تعرف الأجيال الجديدة تضحياتك في سبيل الحرية؟ قال وهو يتنهَّد: هذا الأمر متروك للمستقبل ولا أظنني أستطيع أن أكشف عن كل شيء لاعتبارات تتعلق بالأمن القومي. سألته: أمن إفريقيا؟ قال: لن أستطيع الاستفاضة كثيراً ويبدو أنني تورَّطت وتحدَّثت إليك بأكثر مما ينبغي، ولك أن تعلم أنك الشخص الوحيد الذي أسررت إليه بهذا الأمر، لذلك أرجو أن تكون عند حسن ظني ولا تفشي ما أطلعتك عليه. قلت له: عيب يا كتاوت.. سرَّك في بير!

ظللت أتذكَّر حدوتة كتاوت وأضحك على كذبه المفضوح وخياله العجيب الذي يجعله يعيش في الأوهام، وينسج القصص الخيالية بسهولة شديدة، ولم أندهش بعد

أن علمت أن حارة "سباخ ناشف" كلها كانت تعرف مغامرات كتاوت في إفريقيا، وأنني لست الوحيد الذي فاز بهذا السبق!

غير أن شيئاً حدث غيَّر موقفي من العربي كتاوت، وجعلني أعيد النظر في موقفي منه ومن حواديته. ما حدث هو أنني شاهدت بالتلفزيون وزير الداخلية السابق اللواء منصور العيسوي في لقاء مع عماد الدين أديب يتحدَّث عن الموضوعات الأمنية التي تشغل الرأي العام، ويجيب عن أسئلة أديب الخاصة بمن قتل الشباب في ماسبيرو ومحمد محمود ومجلس الوزراء وغيرها من المواقع التي سقط فيها من أبناء مصر شهداء ومصابين.

نفى العيسوي أن تكون الشرطة قد أطلقت النار على المتظاهرين، ونفى كذلك أن يكون الجيش قد تورَّط في إطلاق نار، وعندما سأله المذيع عمن يمكن أن يكون قد فعلها إذن ما دامت الشرطة والجيش بريئان، خاصة وأن مسؤوليته مفترضة في كل الأحوال بحكم قيادته لوزارة الداخلية. قال اللواء العيسوي إنهم استطاعوا القبض على أحد المجرمين من "الطرف الثالث" الذين قاموا بقتل الثوار، وأنهم وجدوا في حوزته 200 نبلة من التي تُطلق قطع الحديد فيدخل الجسم ويقتل الإنسان في الحال، وأضاف العيسوي بثقة أن حركة حماس هي التي تُنتج هذا النوع من النبال! وربما يكون المشاهدون قد اندهشوا من هذا الحديث غير المتوقَّع عن نبلة حماس التي قتلت وجرحت الآلاف من الثوار دون القبض إلا على شخص واحد لم يسمع به أحد!

لكن واحداً مثلي سبق له أن سمع حديثاً مشابهاً عن نبلة الماكوكو لم يكن له أن يستغرب، وإنما شعرت بأن العربي كتاوت مدين لي باعتذار مصحوب بالندم على سوء ظني به؛ لأن ما اعتقدته من قبيل النخع والنتش والفشر هو معلومات أمنية لا يجوز التهوين من شأنها، ولعل كتاوت كان محقاً في عدم إطلاعي على كل التفاصيل، خاصة ما يتصل بحماس؛ وذلك لحساسية الموضوع. لا مفرَّ إذن من الذهاب لحارة "سباخ ناشف"، وجمع كل من استهان بالميكانيكي النبيل لنقف في حضرته مطرقين قائلين في خجل: "إحنا آسفين يا كتاوت"!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العربي كتاوت.. والشطاف المكهرب!

الأعطال المتكرِّرة للسيارة تجعلني أتردَّد كثيراً على العربي كتاوت ميكانيكي السيارت الذي تقع ورشته بحارة "سباخ ناشف".. سبق أن حدَّثتكم عن كتاوت وأخبرتكم بأنه من الفشَّارين العظام أصحاب الخيال الذي لا تقيِّده حدود، فهو يجيد نسج الحواديت والقصص غير المعقولة، ويحكيها باطمئنان وثقة تشي بأنه يفترض في المستمع الغفلة أو العبط. لكني رغم ذلك لا أملُّ من حكاياته ولا أضيق بأوهامه التي يصلح بعضها لأفلام الخيال العلمي.

في اللقاء الأخير حدَّثني عن الانتخابات الرئاسية وأبدى تبرُّماً من كثرة المرشحين ومن وعودهم المجانية التي ينثرونها في مؤتمراتهم ولقاءاتهم التلفزيونية، فهذا يَعِدُ بأنه سيحقق الأمن بعد أسبوعين، وذاك يتعهَّد بجمع 200 تريليون جنيه لحلِّ مشاكل البلد في أسرع وقت، وثالث يتعهَّد بإنهاء حالة البطالة وتشغيل كل الشباب في خلال سنة، ورابع يقسم بأن يجعل من مصر نمراً اقتصادياً في فترة وجيزة... قلت لكتاوت: لا تضايق نفسك وخليهم يتسلوا على رأي المشلوح. قال: لا يا صاحبي.. ظروف البلد لا تحتمل الفشارين والهجاصين الذين يعملون من البحر طحينة، ويُغرقون الناس في الوعود الوهمية والأحلام. قلت له ضاحكاً: بلاش انت تتكلم عن الهجَّاصين يا كتاوت! بان عليه الغضب وقال: هجص الناس الغلابة لا يصيب أحداً بضرر، أما الهجص الرئاسي فيؤدي إلى كوارث لا يعلم مداها إلا الله، ثم أردف: ومع هذا أنا أفهم أنك تلمزني بقولك هذا، لكني وحياة غلاوتك لا أقول إلا الصدق، وسيأتي اليوم الذي تعرف فيه قيمتي. قبل أن أردَّ سارع بالقول: ما رأيك في أن عندي حلاً لمشكلة المرشحين الكذابين، وأستطيع بسهولة أن أكشف للشعب المرشَّح الصادق من المرشَّح الكذاب، وهذا لعلمك سيسهِّل على الناس الاختيار بعد استبعاد الأونطجية والبكاشين الذين يملؤون الساحة. قلت له: هذه مسألة يصعب ضبطها، فكل مرشح سوف يزعم الصدق، وأنه ينوي تنفيذ وعوده إذا ما فاز بالمنصب. ضحك العربي وقال: ولماذا نخترع العجلة من جديد؟ لنفعل مثلما يفعل الفرنسيون.. هل تعلم كيف يفرزون المرشح الكذاب ويستبعدونه منذ البداية فلا يظلُّ في السباق بعد ذلك سوى الأفاضل؟ قلت: ماذا يفعلون يا أسطى كتاوت؟ هل يخضعونه لجهاز كشف الكذب؟ قال: جهاز كشف الكذب هذا أصبح موضة قديمة بعد أن استطاع البعضُ التحايل عليه، ولعلك لم تنسَ ما فعله رأفت الهجان وجمعة الشوان وفوزي مرجان عندما تغلبوا على الجهاز وخدعوه. قلت: لا تحيِّرني وقل لي ما الحل. قال: هو اختبار بسيط يخضع له الجميع، ومن يرفضه تستبعده اللجنة المشرفة على الانتخابات فوراً. قلت: شوَّقتني لمعرفة ماهية هذا الاختبار، قل لي فربما أجده معقولاً فأكتب عنه، وبهذا يكون لك إسهام في حلِّ مشاكل الوطن. قال: هل تعرف ماذا يفعل البدو سكان الواحات في الصحراء المصرية لكشف الكذاب؟ قلت: لا أعرف. قال: يستخدمون ما يُسمَّى بالبَشْعة، وهي عبارة عن قطعة معدنية يضعونها على النار حتى تحمرَّ وتتوهَّج، ثم يُمسكون بالمشكوك في أمره ويجعلونه يُخرج لسانه ثم يلسعونه بالحديدة لسعة سريعة، فإذا كان صادقاً فإن الجمرة تنزل على

لسانه برداً وسلاماً ولا يصيبه سوء، أما إذا كان كذاباً فإن لسانه سوف يحترق فلا يستطيع استخدامه في الكذب مرة أخرى!

قلت: وما علاقة فرنسا بالأمر يا عم كتاوت إذا كان الاختراع صحراوياً مصرياً؟ قال: وهل ظننت أن الفرنسيين يستخدمون البَشْعة؟ لقد ضربت لك هذا المثال لأقرِّب الصورة إلى ذهنك، لكن الفرنسيس لهم طريقتهم الخاصة التي تتفق مع بيئتهم وظروفهم. لم أعلِّق بكلمة فاندفع كتاوت محاولاً إبهاري بمعلوماته، وقال: الفرنسيون يستخدمون اختبار الشطَّاف في كشف الكذب. قلت مبهوتاً: نعم يا اخويا؟ قال: كنت أعلم أنك لن تصدِّقني، لكن هذه هي الحقيقة، وربما كان الأمر خافياً على أمثالك؛ لأن الفرنسيين لا يحبُّون أن يعلنوا عن بعض وسائلهم لإدارة الحياة؛ وذلك حتى تظل لهم خصوصيتهم ولا يذوبون في تيار العولمة. قلت بهدوء: احكِ لي عن تجربة الفرنسيس يا كتاوت. قال: أبداً.. إنهم يقومون بكهربة الشطَّاف لكل من قام بسحب استمارة الترشُّح فإذا خرج من التجربة قوياً كما دخلها ولم يتأثر بشحنة الكهرباء فإنه يكون قد اجتاز الخطوة الأولى نحو قصر الإليزيه، وأثبت للجمهور أنه من الصادقين الذين يفون بما يعدون، ويحق له أن يُكمل السباق الرئاسي.. أما من يصعقه الشطاف وتحترق بالونته فهو الكذاب الأشر الذي كان ينوي أن يتخذ المنصب مطية لتحقيق الثراء على حساب الشعب. ظللت ساكتاً فأكمل: ولعلمك لو كانوا كهربوا الشطاف للمخلوع بعد مقتل الرئيس السادات لاكتشفنا حقيقته من البداية، ولتجنَّبت مصر ويلات ثلاثين عاماً من الخراب الشامل.

خرجت من عند العربي كتاوت وأنا أضحك على أفكاره العجيبة، غير أنني تذكرت شيئاً مهماً فاتني أن أفحمه به.. في فرنسا لا يوجد بالحمام شطَّاف، مثلها في ذلك مثل بقية دول الغرب التي لا تعرف هذا الاختراع العربي، ودائماً ما يكون هذا من أسباب صدمة العرب عند السفر للمرة الأولى.. ومع ذلك فقد سرحت في فكرة كتاوت وتساءلت: حتى لو كان الفرنسيون لم يكهربوا مؤخرة ساركوزي، فهل يحق لنا أن نفعلها بمرشحينا حتى نستبعد منهم الأونطجية والفوريجية؟ أنا لا أرضى بهذا وإن كنت أنتظر اقتراحاتكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بط وجرجير

لا أحد يكرهك، ولا أحد يضطهدك.. استحم واغسل أسنانك وسوف يقتربون منك يا ابن العبيطة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلاد الكفر والضلال

بعض الظواهر التي شهدتها في هذه الحياة ما زالت تستعصي على عقلي ويصعب عليَّ أن أفهمها. رأيت في كندا أناساً من ذوي اللحى الطويلة كانوا يسكنون بالقرب مني، التقيت بهم في المسجد في صلاة العيد، وعرفت أنهم من الإسلاميين المتشددين الذين تجمعهم الأفكار حول أهمية اجتماع المستضعفين في بقعة بعيدة من الأرض، والبدء في الدعوة لدين الله الحق، بعيداً عن البيئات الطاردة التي خرجوا منها. كان يثير دهشتي أن هؤلاء الناس ليس من بينهم من يُجيد اللغة الإنجليزية أو يحاول أن يتعلَّمها، وليس من بينهم من يسعى إلى التفاعل والاندماج في المجتمع الذي هاجروا إليه.. بالعكس كانوا يغلقون الحياة على أنفسهم في مجتمع ضيِّق وينظرون للكنديين على أنهم كفار يتعيَّن الابتعاد عنهم إذا عجزنا عن هدايتهم وضمِّهم إلى الجماعة. ما كان يدهشني لدرجة الذهول هو: ما الذي يدعو الناس إلى ترك بلادهم واللجوء إلى بلاد لا يحبونها والعيش والاستقرار فيها، وهم يحملون لأهلها طول الوقت شعوراً بالنقمة والقرف؟ ألا تستحق هذه البلاد التي استقبلتهم بالحنان والرحمة وطيَّبت خواطرهم وداوت جراحهم منهم أي عرفان أو حب؟ ولماذا يأتون إليها إذا كانت معاييرها في الحياة لا توافق معاييرهم، وهو ما يضطرهم إلى إعطائها ظهورهم والوجود بها دون الحياة فيها ؟ سيقول قائل إن هؤلاء الناس معذورون، فقد فروا بدينهم ومعتقداتهم من بلاد مستبدة حكمها حفنة من رجال العصابات أمثال مبارك والأسد والقذافي وبن علي، ثم لم يجدوا أحنَّ عليهم من البلاد التي يسمونها بلاد الكفر والضلال، فسكنوها على مضض وقد انتووا أن يجتنبوها ليتقوا شرور ومفاسد الحياة فيها.

ولكن هنا يبرز أكثر من سؤال بعضها منطقي وبعضها أخلاقي.. من الأسئلة العقلانية سؤال يتعلَّق بالبحث العلمي والتطوُّر التكنولوجي والتقدُّم البيئي.. هل كل هذه مفاسد يتعيَّن الفرار منها وتحذير الأبناء والبنات من شرورها لدرجة رفض تعليمهم اللغة الإنجليزية التي قد تسمح للعلم والمعرفة بالتسلل إليهم؟ ومن الأسئلة الأخلاقية تساؤل حول مشروعية أن تبتزَّ مشاعر قوم وتستفيد من تعاطفهم وحنان قلوبهم، وتظلَّ تعرض مأساتك على منظماتهم وجمعياتهم حتى يتبنَّوا موضوعك ويسمحوا لك بالعيش في بلادهم ويمنحوك مسكناً وجُعلاً مالياً كل شهر، فضلاً عن حصة تموين شهرية من دقيق ولبن وسكر وزيت.. آه والله.. ثم بعد ذلك لا يؤثِّر فيك كل ما فعلوا، وإنما تتعامل معه باعتباره فطنة من جانب المؤمنين في استغلال غفلة الكفار والاستفادة من نقاط ضعفهم.

إن أحداً لم يطلب ممن فرَّ من الاضطهاد وهاجر إلى بلد غريب بأن يعتنق أديان من لجأ إليهم، ولا أن يحذو حذو الجانحين والشواذ من أبناء تلك البلاد.. لكن مطلوب ألا يقمع إنسانيته، وأن يسمح لمشاعر الامتنان أن تظهر على وجهه وهو يتحدَّث عمن آووه وأطعموه وآمنوه من خوف!

وسؤال إضافي آخر لم أتوصَّل لإجابته هو: لماذا اختاروا بلاد الكفر والضلال ولم يلوذوا بديار الإسلام حتى يعيشوا في تبات ونبات ويخلفوا صبيان وبنات يكونون

في حالة توافق مع الحياة، ولا يشعرون بالغربة أو بالوحشة وسط أقوام مختلفين عنهم في كل شيء؟ وهنا من الطبيعي أن يأتي الردُّ بأن بلاد المسلمين لا ترعى في المسلمين إلاً ولا ذمَّة، وأن العيش بها يحمل مخاطر جسيمة على من يحمل في داخله مشروعاً إسلامياً، أو يحلم بالحياة على نهج السلف الصالح، وقد يضربون لنا أمثالاً بما فعله الأسد الأب والابن في الإسلاميين، بدءاً من مجزرة حماة وحتى مجازر اليوم أو بما فعله مبارك من تنكيل بالإسلاميين طوال فترة حكمه اللعينة أو بما فعله صدام والقذافي وباقي الإرهابيين من حكام بلاد العرب والمسلمين.

كل هذا معروف ومنطقي لكن هناك مثال لبلاد لا يتحدَّث عنها الإسلاميون إلا بكل الخير والحب مثل السعودية والسودان وأفغانستان.. ما الذي يمنع هؤلاء المؤمنين من الفرار بدينهم إلى السعودية؛ حيث القوم كلهم ذوو لحىً، والنساء منتقبات، ولهم نفس ما لهؤلاء من آمال وأحلام، وحيث التلفزيون الرسمي لا يبثُّ إلا الأشياء التي يحبونها؟ أو لماذا لا يفرُّون إلى أفغانستان حيث يلقون الصحبة المناسبة، ويساهمون في دعم المجتمع الإسلامي الذي يحلمون بتأسيسه؟ لماذا يتركون البيئة الطبيعية المخلوقة من أجلهم ويذهبون إلى مجتمع ينكرونه منذ اللحظة الأولي؟ أعتقد -والله أعلم- أنهم في قرارة أنفسهم يعرفون الحقيقة، وإن كانوا ينكرونها حتى بينهم وبين أنفسهم.. فهؤلاء الناس في النهاية هم بشر وليسوا كائنات فضائية، ولا شك أنهم مثلنا يفزعون من إمكانية التعرُّض للجلد أو الضرب على القفا أو قطع الرأس دون ذنب، لكنهم يتصوَّرون أن الإقرار بهذه الحقيقة قد ينتقص من إيمانهم، ويظنُّون انتقاد طالبان أو آل سعود مما يُدخل صاحبه النار! لهذا فهم يهاجرون إلى كندا وأمريكا ثم يكفِّرون عن فعلتهم بلعن البلاد التي آوتهم ووصفها بالكفر والضلال، على العكس من بلاد طويل العمر التي لم يهاجروا إليها لأسباب ليس من حق أحد الاطلاع عليها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

روبابيكيا

ليست مشكلة على الإطلاق أن نستجيب لنائب الشعب الذي استنكر تعلُّم اللغات الأجنبية في المدارس، واعتبرها مؤامرة على الأمة تهدف إلى سلبها هويتها والتعدي على خصوصيتها، ولا بأس إذا استمعنا إلى رأيه في اللغة الإنجليزية، ثم أخذنا بهذا الرأي وامتنعنا عن التعامل مع لغة المستعمر واكتفينا بلسان الضاد. لكن تتبقى بعض القضايا البسيطة يتعيَّن أن نعالجها أولاً قبل الشروع في مقاطعة لغات الكفرة والمشركين.

بدايةً أقرُّ بأن استغناء الناس في مجتمع ما عن اللغات الأجنبية وقدرتهم على الاكتفاء بلغتهم هو دليل ساطع على مقدار ثقتهم بأنفسهم وعلامة مؤكدة على تقدمهم وتفوقهم في العلوم والمخترعات ومنجزات الحضارة، وكذلك في العلوم الإنسانية والفنون والآداب.. وعلى هذا يمكن للمواطن الأمريكي أن يولد ويعيش في سعادة وراحة وبحبوحة ومنعة وسلام دون أن تتأثر حياته بجهله بكل اللغات عدا لغته الإنجليزية. كذلك يمكن للمواطن الياباني أن يفعل الشيء نفسه وأن يحصِّن نفسه وثقافته من التأثيرات الخارجية، وذلك باعتماده على الذات في كل أوجه النشاط الإنساني وعدم احتياجه للغير إلا في أضيق نطاق. لكن هل يحق لبلاد موكوسة وشعوب خائبة تتولى السلطة فيها قيادات دموية تستبيح الكرامة وتهتك الأعراض.. لا أتحدَّث عن السلطة الحالية فقط، لكني أقصد ما لحق بالشعوب العربية طوال القرون الماضية من بؤس وذل على يد الحكام الذين لم ينفعنا كونهم من ديننا ومن ملتنا ويتحدثون نفس لغتنا، وتحقق لنا على أيديهم الخراب الشامل!

لقد مضي العالم في سكة المخترعات منذ عصر النهضة الأوروبي، ودخلوا عصر البخار ثم عصر الكهرباء وعصر النواة والذرة ووصلوا إلى النانو والفيمتو ثانية، ونحن ما زلنا نتجادل في إطالة رجل الشرطة للحيته! إننا نركب السيارة ولم نخترعها ولا حتى نستطيع أن نقوم بتصنيعها بعد أن اخترعها غيرنا، والأمر نفسه ينطبق على الطائرة والصاروخ والأمصال والأدوية وكل ما ينفع الناس ويخدم حياتهم ويساعدهم في إعمار الأرض.

نحن نرسف في الجهل والفقر والمرض ونتقبَّل الظلم من الحاكم ابن الحرام، ويدعو فريق منا الناس إلى عدم الخروج عليه، ومع هذا نتصوَّر أننا نستطيع الاستغناء عن الغرب ولغاته.. ولا أعلم على أي أساس أتينا بهذا الصلف العبيط؟ هل الحاكم الظالم ابن الحرام الذي يسعدون بوجوده هو الذي سيغنينا عن الغرب ومنجزاته العلمية والفكرية؟ لا أدري.. ولكن ما أدريه أن الحكام الطغاة الذين يبايعهم السادة كارهو الغرب هم الذين يجعلون استغناءنا عن هذا الغرب مستحيلاً. وربما لو ساعدنا سيادة النائب وأصحابه على الخلاص من الظلمة والطغاة بدلاً من الخضوع لهم فلربما أمكننا أن نستغني في يوم من الأيام عن الآخرين؛ لننعم بالنهضة التي لا تتحقق إلا بالديموقراطية والعلم والعمل. وربما كان يحق للنائب الذي انتخبه الغلابة ظناً منهم أنه يفوقهم علماً وخبرة وقدرة على انتشالهم من خيبتهم أن يرفع مطلبه بمخاصمة

اللغة الإنجليزية بعد أن يخرج بنا من مرحلة ما دون الصفر التي نحياها، وأن يحقق لنا هو وأصحابه الاستقلال السياسي والعسكري والأمني والغذائي والعلمي والبيئي.

وفي الحقيقة تذكرنا حالة النائب الذي يظن الانكفاء على الذات ومخاصمة صناع الحياة في الغرب هو الذي يصون ثقافتنا ويحميها بما فعله معمر القذافي في ليبيا. لقد كان من أسباب بؤس ليبيا أن شخصاً آمن بنفس فكرة السيد النائب وامتلك السلطة لتحقيقها فقام بمنع استعمال أي لغة أجنبية في البلد الشقيق وقام برفع اللافتات الإنجليزية من المطارات تلك التي تساعد المسافرين على التحرُّك داخل المطار، وقام بمنع قيام معاهد لتعلُّم اللغات في بلاده.. وقد نسي القوميون الذين أيَّدوا وباركوا خطوته أن يعوضوا ليبيا عن الاستثمارات التي تجنبتها والسياحة التي هربت منها والعلوم والفنون التي خفيت على الليبيين واكتفوا بمبايعة المجنون زعيم الخرابة!

ولا تختلف الدعوة إلى ما يسمَّى بالاقتصاد الإسلامي عن الدعوة لمقاطعة اللغة الإنجليزية.. هي أيضاً لا تصلح للتطبيق إلا عندما يكون المسلمون سادة على هذا الكون، يقفون في مقدمة الأمم ويتفوَّقون على العالم ويسهمون في الحضارة بالنصيب الأوفر.. تصلح للتطبيق عندما تكون مفاتيح النظام المصرفي العالمي في أيدينا ومبادئ العلوم البنكية الجديدة من اختراعنا، وقوتنا المعرفية والعسكرية تسمح لنا بأن نقوم نحن بوضع قواعد اللعبة، وعندها لا يكون من حق الآخرين سوى اللحاق بنا والانضمام إلينا وإلا تضرَّروا بشدة.. بالضبط كما يحدث معنا الآن عندما يضع الغرب اتفاقية الجات وغيرها، ولا يكون أمامنا سوى الانصياع والانضمام، وإلا غضبت علينا الدول الكبرى وطردتنا من رحمتها. أما عندما ننتمي إلى بلاد الروبابيكيا ونكون عالة على الدنيا في كل شيء، ثم نتمطَّع ونعلن رغبتنا في تطبيق إقتصاد إسلامي أو مخاصمة لغات الآخرين، فهذا في الحقيقة يذكِّرنا بأحد المشاهير من الشيوخ الراحلين عندما قال إننا خير أمة أخرجت للناس بدليل أن الله قد سخر لنا الخواجة ليخترع لنا كل ما نحتاجه ونحن على مؤخراتنا قعود!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البحث عن غسيل نظيف

زهقت وأصابني الملل من الردِّ على بعض رسائل القراء المتكررة التي تحمل اتهاماً أواجهه منذ بدأت الكتابة لجريدة الوطن بأنني أقوم بنشر الغسيل غير النظيف لبلدي مصر، وذلك عندما أقوم بانتقاد الأوضاع بها في صحيفة غير مصرية! حدث هذا أيام حكم الملعون، ثم استمر أيضاً بعد الثورة، لدرجة أن هناك من القراء من اتهمني بأنني أخفي عنهم بريدي الإلكتروني الذي يفترض أن يُذيِّل المقال حتى لا يتمكَّنوا من مواجهتي برأيهم فيما أكتب! وأنا في الحقيقة بريء من هذا الاتهام؛ لأنني لا أرى العدد الورقي من الجريدة، ولكني أقرأها على النت دون أن أدري إذا كان الإيميل موضوعاً أم لا! أنا أتفهَّم حساسية المصري خارج بلده لنقد أوضاعها؛ لأن هذا يُعرِّضه أحياناً للهمز واللمز والمعايرة، كما أتفهَّم أن المصري المغترب يحلم بأن يفتح الصحيفة فيراها تمتلئ بالأخبار التي تدعوه للفخر والتيه على زملائه وأقرانه بأم الدنيا التي يحمل خاتمها وبصمتها الوراثية.. لكن ماذا أفعل ككاتب يرفض الغش والتضليل إذا كان وطننا قد وقع لمدة ثلاثين سنة في قبضة القراصنة الذين اعتصروه وأهانوه وقزَّموه وجعلوه فرجة بين الأمم؟ هل أقوم بما تفعله هيئة الاستعلامات أو هيئة تنشيط السياحة فأكتب موضوعات إنشاء مدرسية تتغنى بسماء الوطن ونيله وعظمة حكامه وزوجاتهم وبنيهم؟ إن بعض القراء يتلطَّف فيعترف لي بالحق في تناول هموم الوطن، ولكن بشرط أن يكون هذا في الصحف المصرية، أما في الصحافة العربية فلتكن الكتابة رفيقة رقيقة حانية..

وأنا والله أعترف لهم بأنني حريص على أن أفعل هذا طوال الوقت، ولكن لأسباب تختلف عن أسبابهم.. أنا أسعى دائماً فيما أكتب لأن أتجنَّب السياسة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وأفضِّل الكتابة في الموضوعات الاجتماعية ذات الصبغة الإنسانية الداعية إلى التأمل والتفكير والتي تحمل شيئاً من العمق وبعض الطرافة.. هذا ما أوده، لكن أحداث مصر الضاغطة كثيراً ما تجعل من هذا ترفاً لا يُحتمل.

وعلى أي حال فإن أخبار مصر وتحليل الأحداث بها خصوصاً لو كانت أحداثاً درامية ساخنة تأخذ مكاناً مميزاً في الإعلام العربي بحكم المكانة والمنزلة بين العرب ولا تعتبر اقتحاماً أو إشراكاً للقارئ العربي فيما لا يعنيه. وما دام الأمر كذلك فكيف يمكن للمرء أن يكتب عن مصر دون أن ينتقد ويسخر من القتلة واللصوص الذين حكموها، وحتى بعد زوال حكم هؤلاء فإن من أتوا بعدهم ليسوا معصومين من الخطأ وليسوا فوق النقد والمحاسبة، والأمم لا تنهض وترتقي بدفن الرؤوس في الرمال لكن بمواجهة حقائق الحياة ومعالجتها، فضلاً عن أن مسألة النشر داخل الوطن وخارجه أصبحت حكاية ممجوجة ولا ينفع استخدامها كما كان الرئيس السادات يفعل مع خصومه ومعارضيه الذين منعهم من الكتابة داخل الوطن ولامهم على الكتابة خارجه! صحيح لم يمنعني أحد من الكتابة في مصر لكن وسائل الاتصال الحديثة جعلت الصحف جميعاً وكأنما تصدر من كل مكان في نفس الوقت، فانا أقرأ الصحف الأجنبية والعربية كل صباح وأنا جالس ببيتي دون أن أتحرك

خطوة واحدة خارجه. لم يعد يوجد إذن شيء اسمه النشر داخل الوطن والنشر خارجه.. كل ما ينشر يعرف به الناس في كل مكان..

وهناك نقطة في غاية الأهمية يغفلها القراء اللائمون وهي أن القاريء العربي في البلد العربي الذي يعيشون به يحمل لمصر في العادة كل المودة والحب ويسعد لأي خير يصيبها كما يشقي لشقائها ولا يصح أن نتعامل معه على أنه غريب لا يصح أن يطلع على سيئاتنا، ولتكن لنا أسوة في الإعلام الغربي الذي لا يتردد في نشر كل شيء وفضح كل صور الفساد ومع ذلك لا يزدهم هذا النشر إلا قوة ومنعة واحتراماً.. رويداً يا أصدقائي المصريين في بلاد العُرب وحنانيكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خفض منسوب النذالة

في زيارتي الأخيرة لتركيا لفت انتباهي أمر رأيته جوهرياً، وهو أن مستوى النذالة في سلوك الناس قد انخفض بصورة ملحوظة! منذ سنوات مضت كان الانطباع الذي تخرج به عند التعامل مع الأتراك أنهم شعب من الشطّار والأونطجية الذين يسعون لسلب السائح ماله بكل الوسائل. لكن هذا تغيَّر بصورة لافتة في الآونة الأخيرة، وتزامن هذا التغيُّر مع صعود حزب العدالة والتنمية ونجاحه في إحداث نقلة كبيرة في مستوى معيشة المواطن التركي، وكذلك نجاحه في تحجيم سلطة العسكر الذين هيمنوا على القرار السياسي لسنوات طويلة بصورة لم يترتب عليها سوى إفقار الناس ونشر ثقافة التسوُّل واللصوصية بين الناس، فضلاً عن انتشار الدعارة التي كانت مصدراً أساسياً من مصادر الدخل القومي؛ حيث تقوم المومسات والقوادون بدفع الضرائب وملء خزائن الحكومة! كل هذا كان يشجِّعه العسكر في تركيا، ولا يرون فيه ما يستوجب الخزي والعار! الآن بعد أن ضعفت قبضة العسكر وصارت الإرادة الشعبية هي الحاكمة انحسرت الدعارة وفي طريقها للزوال بعد أن وفرت الحكومة للناس فرصاً للكسب بعيداً عن الاتجار في أعراض البنات والزوجات. ومن المظاهر التي يلمسها الزائر لتركيا أن نسبة سائقي التاكسي الأوغاد الذين يطوفون بالسائح المدينة كلها قبل أن يقوموا بتوصيله لمقصده قد انخفضت كثيراً. في السابق كانوا كلهم على هذه الشاكلة، والآن أصبح السائق الأمين موجوداً بصورة ملحوظة.

ويمكن لهواة عقد المقارنات أن يقولوا إن مستوى النذالة في سلوك الأتراك هو أقل بكثير من نظيره في سلوك المصريين سواء الذين يتعاملون مع السائح أو غيرهم، لكنه مع ذلك دون سلوك الناس في أوروبا الغربية وأمريكا التي تكاد تنعدم فيها النذالة فيما يخص الخدمات التي يحتاجها الزائر كالفندق والمطعم وسيارة الأجرة وزيارة الأماكن السياحية والأسواق. وفي البلدان التي قطعت شوطاً بعيداً في الحكم الديموقراطي حيث الشفافية والمحاسبة والمشاركة وتداول السلطة، لا بد وأن ينحسر الفساد ويرتفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للناس، فتتحسَّن أخلاقهم ويقلّ احتياجهم للكسب الحرام.. أما الذين يكتفون بالمواعظ والخطب والبرامج الدينية ويتصوَّرون أنها كفيلة بتحسين أخلاق الناس مع استمرار حكم اللصوص وغياب الديموقراطية، فإنهم لن يحصلوا إلا على شعب من الحرامية والمرتشين الذين يؤدون الصلوات في مواعيدها ويكثرون من البسملة والحوقلة وقول: "قدَّر الله وما شاء فعل" بعد كل جريمة يرتكبونها في حقك. ولا يُتصوَّر أبداً أن سائقاً إنجليزياً مثلاً يقطع بك شوارع لندن قبل أن ينقلك للشارع المجاور الذي هو وجهتك.. وهذا للعلم حدث لي بدمشق حيث نقلني السائق من أحد طرفي ميدان الحجاز إلى الطرف الآخر في مشوار استغرق ساعة، ولم يخبرني السائق النذل أن العنوان الذي أريد الوصول إليه يكفي فيه عبور الرصيف!

هي الديكتاتورية إذن التي تخرب أخلاق الناس وتحرمهم من الحرية الجالبة للسعادة والثقة بالنفس والأداء الاقتصادي الجيد، ومن يريد أن يتأكد فلينظر إلى السائح

الأجنبي عندما ينزل مطار القاهرة، وحجم النذالة التي يلقاها من كل من يقابلونه في الجوازات والجمارك وعلي سير الحقائب وعندما يهم بركوب تاكسي، ومن موظفي الفندق والمطعم والبازار وأصحاب الجِمال والجياد والجحوش. لهذا كله فإننا نريد أن نحذو حذو تركيا التي ودَّعت الاستبداد واحتكمت لصناديق الاقتراع، وجعلت اليد العليا للشعب وللسلطة المنتخبة، بعد أن أعادت الجيش إلى وظيفته الوحيدة وهي الدفاع عن الوطن فقط دون أي دور سياسي أو تشريعي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رؤية ضيقة

طول عمرنا ونحن مشغولون بأنفسنا عن العالمين، ونظنُّ أن الدنيا أيضاً مشغولة بنا بذات الدرجة. مسألة غريبة حقاً أننا ننظر إلى داخل أنفسنا ولا نرنو بأنظارنا إلى العالم الخارجي إلا لنتهمه بأنه يتآمر علينا، وإحساسنا بالذات متضخِّم، ونظنُّ أن الكون كله معلق بإشارة من أصابعنا، كما نعتقد أن سكان الكرة الأرضية لا ينامون قبل أن يعرفوا آخر أخبارنا!

هل يصدِّق أحد أننا في مصر ومع كل حبنا لكرة القدم ومتابعتنا للمسابقات الإفريقية من أبطال الكؤوس وأبطال الدوري التي يشارك بها الأهلي والزمالك لا نتابع مجريات البطولة ولا نعرف حتى اسم الفريق الفائز بها إذا خلت البطولة من وجود الفرق المصرية. نحن نعرف فقط البطولات التي نفوز بها ونهلل للفوز تهليلاً كبيراً ونتصوَّر أن الدنيا كلها تتابعه معنا.. أما إذا انهزمنا وودعنا البطولة مبكراً فإن الصحافة الرياضية لدينا لا تكلف نفسها بتغطية البطولة أو تعريفنا بالفائز اللهم إلا في خبر صغير تفوت قراءته على معظم الناس.. هذا مع العلم أننا لا نكف عن التشدُّق بالانتماء الإفريقي والريادة في القارة، مع أن تصرفاتنا لا توحي بأي ريادة، إنما بالتمحور حول الذات والانشغال بالانتصارات الصغيرة التي نتصوَّرها فتوحات يتحدَّث عنها العالم.

وعندما فاز نجيب محفوظ بجائزة نوبل في الآداب عام 88 فإن فرحتنا به كانت أمراً طبيعياً، وفاقت أي فرحة أخرى عاشها شعب فاز أحد أبناؤه بنوبل في الآداب، وقد تصوَّرنا وقتها أن كل إنسان على ظهر الأرض قد بلغه الخبر السعيد، وأصبح يعرف الأديب المصري الكبير، مع أن هذا غير صحيح بالمرة؛ لأن هذه الأخبار تهم قراء الأدب العالمي فقط، ولا يحفل بها المواطن العادي، ومثال ذلك أن المواطن المصري لم يعرف أبداً اسم الفائز بنفس الجائزة في السنوات التي سبقت فوز محفوظ بها أو في السنوات التالية لفوزه. لكننا لا نتصوَّر هذا أبداً، ولا نجد مانعاً من أن تنساق الصحف جميعاً في التشهير بالممثلة الأمريكية "دونا ميلز" التي حضرت مهرجان القاهرة السينمائي في مطلع التسعينيات وعندما سألوها في المؤتمر الصحفي عما إذا كانت تعرف نجيب محفوظ وأجابت بالنفي، فإنه تم سلقها ووصفها بالجهل؛ لأنها لم تسمع عن محفوظ العالمي، وفاتهم أن الفنانين المصريين أو معظمهم على الأقل لم يعرف الفائز بالجائزة عام 89 أو الأعوام التالية، ومن المستغرب أن تعثر بينهم على شخص واحد يعرف من يكون أوكتافيو باث أو جونتر جراس أو وول سوينكا أو أورهان باموق.

ويبدو لي أن السبب وراء هذه الحالة يكمن في أن إنجازاتنا الحقيقية شحيحة للغاية، وإسهامنا في الحضارة الإنسانية متوقِّف منذ ألف عام، وقد زاد على ذلك أن الثلاثين سنة الأخيرة قد مات فيها الطموح موتاً سريرياً، وصغرت الأماني حتى أصبحت بحجم مفهومية الحاكم البليد، وأصبحت الدولة المصرية تشبه الطفل الأناني السخيف الذي يعتبر فوز الآخرين خبراً سيئاً يستحق التجاهل عوضاً عن الفشل

الذي يحققه كل يوم، ومع هذا فإن هذا الطفل تسير وراءه زفة إعلامية تجعل من نزول الريالة على ملابسه خبراً مهماً يستحق الإشادة.

ولننظر مثلاً إلى الدكتور أحمد زويل العالِم الأمريكي من أصل مصري الذي هاجر منذ عشرات السنين وحقق نجاحاً علمياً كبيراً في أمريكا، لنرى أن كل شعب مصر يعرفه جيداً ويتابع أخباره ولقاءاته التلفزيونية الكثيفة، وذلك على العكس من الشعب الأمريكي الذي لا أظنُّ المواطن العادي به يعرف زويل أو غيره من الفائزين بنوبل.. ذلك أن أمريكا تقدِّم كل عام فائزين جدداً في كل المجالات العلمية، ولا يسهل على الشعب الأمريكي أن يتابعهم جميعاً، وأتصوَّر أيضاً أن هناك في مصر من ينظر لمن لا يعرف زويل على أنه شخص جاهل، بالرغم من أنه هو نفسه لا يمكن أن يكون عارفاً -بخلاف زويل- باسم أي شخص فاز بنوبل في الكيمياء أو الفيزياء طيلة قرن بأكمله!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الموبايل والطربوش

لا أدري هل يحتاج المرء إلى حياة أخرى أو ينتظر دخول الجنة حتى يستطيع أن يشاهد فيلماً سينمائيا داخل دار العرض دون متاعب أو منغضات؟ إن الناس قد تبلدت أحاسيسها على نحو بالغ الغرابة والعجب، فلا يستحي الواحد منهم أن يترك تليفونه المحمول مفتوحاً أثناء عرض الفيلم ليتلقى عليه مكالمات الأصدقاء طوال مدة الفيلم، ولا يخجل من رنين التليفون المزعج الذي يشتت المشاهدين، بل إن بعض الأنطاع لا يتورَّع الواحد منهم عن أن يحدِّث صاحبه على الطرف الآخر عن الفيلم الدائر ويروي له أحداثه ويناقشه في تفاصيله، وكل ذلك بصوت عالٍ وكأنه يجلس على البلاج.. وكم من خناقة نشبت في الظلام بين شخص عديم الإحساس يتحدَّث في التليفون وبين بعض المشاهدين المتضررين.. والغريب أن دور العرض لا تبذل أدنى جهد لفرض النظام داخل قاعة العرض، وتترك كل مشاهد لذوقه وضميره!

لقد كنا في السابق قبل اختراع المحمول نظنُّ أن قزقزة اللب أثناء عرض الفيلم هي أعلى مراتب قلة الذوق.. حدث ذلك في الزمن الذي كان فيه من يهمس داخل السينما إلى مَن بجواره يشعر أنه يرتكب ذنباً كبيراً، واليوم أصبحنا نتحسَّر على تلك الأيام. الغريب أن المسؤولين عن دور العرض ينهضون بمنتهى القوة لفرض النظام داخل الصالة حين يتعلق الأمر بأشياء تخص البيزنس وتشغيل الكافيتريا، فهم لا يتسامحون بالمرة مع محاولات إدخال سندوتش أو قطعة حلوى جلبها المتفرج معه من الخارج، ولا يخجلون من وضع لافتة كبيرة تحذِّر الجمهور من إدخال مأكولات أو مشروبات إلا في حالة شرائها من كافيتريا الدار! أما استعمال المحمول داخل الصالة فلا جناح عليه، وكذلك التهريج وتبادل النكات والإفيهات بين الشباب.

لكن مما يعزِّي المرء أن هذه الأشياء التي تنغِّص على المتفرج وتمنعه من المشاهدة الهادئة ليست جديدة ولا وليدة هذا الزمان.. صحيح أنها كانت موجودة بأشكال تزيد أو تقلُّ حدتها تبعاً لظروف الزمن وأخلاق أبنائه، إلا أجدادنا قد عانوا أيضاً من أشياء لا تخطر على بالنا اليوم. وقد قرأت مقالاً قديماً للمخرج محمد كريم (1896-1972) أعرب فيه عن كراهيته الشديدة للطربوش بسبب تأثيره السيئ على مشاهدة الأفلام، وكان مما قاله رائد الإخراج: الطربوش كالتمثال الصامت، جميل رائع، لكن جماله سلبي ومعانيه لا وجود لها، وأنا أنقم على الطربوش جموده، وهو فوق ذلك مصدر من مصادر ضيق النفس وسبب لإزعاج الغير في دور السينما، وهذا هو بيت القصيد، وإني أعدُّ لبس الطربوش في دور السينما سبب قلق وإزعاج خاطر، وأذهب بعيداً وأقول إنه نقص في الأخلاق؛ لأن الشخص أو الشخصين اللذين لا يحلو لهما الهمس في دار من دور السينما إلا وهما لابسان الطربوش، إنما يتعمدان حرماني وحرمانك من الفائدة أو المتعة التي أتينا من أجلها، فهما في الحقيقة تنقصهما الأخلاق. إن السيدة في أوروبا تخلع قبعتها إذا ذهبت إلى مسرح أو سينما. ومع ما في خلع قبعة السيدة ولبسها بعد ذلك من تعب وإجهاد ووقت، فإنها لا تتردد في خلع قبعتها احتراماً لشعور الجالسين في الصفوف التي خلفها.. أما هنا

فإنه يعز على الكثيرين أو يتعمد الكثيرون ألا ينزعوا طرابيشهم ولهم في ذلك حجج وأعذار من السخف أن نعتدَّ بها أو نقيم لها وزناً، فالبعض يفضِّل أن يلبس الطربوش؛ لأنه لا يتفق مع وقاره أن يبدو عاري الرأس، والبعض يعتذر بزكام أو برد طارئ، والبعض يرى أن منظره بالطربوش أجمل منه بغيره، أو ليخفي صلعته اللامعة أو لأسباب أخرى تافهة يزنها بميزان عقليته.

هذا ما كتبه محمد كريم منذ ما يقرب من 80 سنة، وقد عبَّر عن مرارته كعاشق للسينما ممن يحُولون بين الناس وبين الاستمتاع بمشاهدة الفيلم في دار العرض.. وهكذا لكل زمن متاعبه ومنغِّصاته، وتعددت الأسباب ولكن قلة الأدب واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

آه يا بنت المحظوظة!

الفنانة إلهام شاهين مثل بقية نجمات جيلها.. انسحبت عنها الأضواء وأخذ نجمها في الأفول بعد ظهور جيل النجمات الجديدات صغيرات السن. ويلاحظ أنه في الفترة التي كان لإلهام شاهين شهرة سينمائية ناتجة عن أعمالها لم نكن نسمع لها رأياً في السياسة أو في غير السياسة.. كانت مكتفية بفنها وبأعمالها، لكن المشكلة بدأت عندما تراجعت الأعمال وانحسرت الشهرة ولم يعد من سبيل لتصدُّر مانشيتات الصحف إلا من خلال المواقف الغريبة والأخبار الصادمة. بعد ثورة 25 يناير المجيدة رأينا إلهام شاهين تقف في معسكر فلول مبارك المعادين لأماني وأحلام الشعب المصري، المنددين بثورته المجيدة، المستهينين بدماء شهدائه، المترحِّمين على المخلوع المجرم وأسرته الجانحة. لم تكتفِ إلهام بهذا وإنما ساندت بكل قوة الجنرال الهارب أحمد شفيق في حملته الانتخابية، واعتبرته مع كل سجله الجنائي ومسؤوليته عن موقعة الجمل مرشح الدولة المدنية! ثم نذرت نفسها بعد ذلك للخروج مع توفيق عكاشة في تظاهراته التي حشد فيها المرتزقة والبلطجية والشبيحة الذين كانت السلطة الحاكمة تدفع لهم أجورهم.

وهنا أودُّ أن أؤكد للمرة المليون أنني لا أنكر على أحد حقه في حبِّ مبارك وتأييد شفيق لكن دون تدليس.. بمعنى أنني أرحب بأن يقول المُتيَّم بشفيق: أنا أعلم أن الرجل مسؤول جنائياً وسياسياً عن شهداء موقعة الجمل، وأعلم أن الرجل تدور حوله اتهامات بالفساد والتربُّح مع أبناء مبارك وأصهارهم، كما أقرَّ بمسؤوليته عن تهريب الأموال بعد الثورة، وكذلك تهريب مجرمين مثل حسين سالم ومنير ثابت ورشيد ويوسف بطرس.. أعلم كل هذا، ومع ذلك فإنني أؤيده كرئيس للجمهورية؛ لأنني أراه برغم سجله المثقل أفضل من مرشّح جماعة الإخوان المسلمين.

إن من يتبنَّى هذا المنطق فإنه يحظى لا أقول باحترامي ولكن بتفهُّمي لموقفه ودوافعه في مساندة شر من أجل درء شر يراه أكثر خطورة. أما أن يرفع عقيرته بالكذب ويزعم أنه يؤيد شفيق من أجل الدولة المدنية، ثم يسبغ على الرجل أوصافاً وينسب إليه أمجاداً تدهشه هو نفسه، فإنه هو الأمر المثير للغضب والمفسد للودِّ والمبدد للثقة في قائله. لكل هذا فإن موقف إلهام شاهين السياسي هو موقف رديء بكل المعاني ولا يمكن الدفاع عنه..

لكن هذا كوم وشتمها وسبُّها والافتئات على شرفها والحطُّ من كرامتها شيء آخر. والبشاعة في الأمر تكمن في أن من قام بسبها هو رجل دين ينظر العوام إلى ما يصدر عنه باحترام وتقدير، أي أنه استخدم سلاحاً محرَّماً ضد مواطنة مصرية اتخذت موقفاً سياسياً لا يعجبه، وكان ينبغي ألا يكون الردُّ عليه بالطعن في شرفها وعرضها. ولسنا في حاجة إلى التدليل بأن الهجوم غير الموضوعي الذي مسَّ سمعة وشرف إلهام شاهين كان له أعظم الأثر في تمييع الموضوع الأساسي وإكسابها تعاطفاً مستحَقاً لدى الناس، وانقلابهم على الشيخ المنفلت الذي لا يراعي حرمات الله في نقده السياسي لخصومه.

واليوم تعيش إلهام دلالاً حقيقياً ناتجاً عن اعتذار الكرة الأرضية بأكملها لها عما لحق بها من غبن.. هذا الاعتذار الذي وصل حتى رئيس الجمهورية الذي وضع موضوع إلهام على أجندته، بالرغم من أنه ليس له ناقة ولا بعير في الأمر، فلا هو مسؤول عن الشيخ الذي سبَّها، ولا هو الذي حرَّضه، ومع ذلك فقد انتفضت الرئاسة واندفعت في انحياز واضح لأحد طرفي قضية يمكن للقضاء أن يأخذ فيها للمظلوم حقه. وهكذا رأينا إلهام شاهين تتقلب بين ليلة وضحاها من فِلة سليلة فلول إلى جان دارك المصرية، وقائدة فيلق التنويريين في مواجهة الظلاميين. وأعتقد أن إلهام مدينة بالشكر في كل هذا للشيخ الذي شتمها، فغسل موقفها السياسي السيئ وجعل الناس يغبطونها قائلين: آه يا بنت المحظوظة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عن خطايا البط والجرجير

على إحدى قنوات الأفلام شاهدت مؤخراً فيلم الخطايا من إخراج حسن الإمام، وهو الفيلم الذي شاهدته مراراً منذ الطفولة. هذه المرة وعلى خلاف المرات السابقة لم أكتفِ بسماع أغاني عبد الحليم حافظ التي أحبها، مع الإعراض عن الحدوتة التي لا معنى لها غير التخديم على الأغاني وفرش الطريق لها، وإنما لقيت نفسي منتبهاً للحبكة الأساسية العجيبة للفيلم. يحكي الفيلم عن زوجين لا ينجبان قاما بتبنِّي طفل لقيط ثم حملت الزوجة بعد ذلك وأتت بولد فصار لهما ابنان يقومان بتربيتهما، وعندما يكبر الولدان ويصبحان شابين يحب أكبرهما ابنة الجيران وزميلته بالجامعة، وتبادله هي الحب، كما يبارك الأخ الأصغر قصة حبهما. يأتي الماسترسين الذي يعرفه كل المشاهدين عندما يواجه الابن والده برغبته في خطبة الفتاة، فيفاجأ بأغرب ما يمكن أن يواجهه لا أقول ابن وإنما إنسان.. يرفض الوالد أن يخطب الفتاة لابنه الأكبر.. لماذا؟ لأنه ابن بالتبني وليس من صلبه! وهل من الطبيعي أن يرفض المرء تزويج ابنه بالتبني من فتاة يحبها؟ الإجابة: لا.. ولكن لأن البنت تعتبر عروسة لقطة، فإنه يدَّخرها للابن الأصغر الذي هو ابنه الحقيقي! تسأل: وهل يكره الإنسان ابنه الذي تبنَّاه وسهر على تربيته وارتبط به نفسياً وأشبع نفسه منه طوال مراحل نموه؟ والإجابة: لا طبعاً لا يكرهه، ولكنه قد يميل أكثر بمشاعره نحو الابن الذي من صلبه.. وهنا نجد أنفسنا في مواجهة مع تلك الحبكة العبثية التي لم يشعر صناعها بأنها تليق بأناس في مستشفى الأمراض العقلية؛ لأننا إذا سلَّمنا بحب الأب لابنه الحقيقي ورغبته في تزويجه وإسعاده فإن النتيجة الطبيعية لهذا هي أن يبتعد قدر ما يستطيع عن هذه الفتاة بالذات، بعد أن علم أن ابنه الآخر يحبها، وأنها تبادله الحب، وبعد أن علم أن الابن الأصغر لا يرغب فيها ولا يتصوَّر نفسه زوجاً لحبيبة أخيه. كان يمكن للأب بعد أن يفهم المسألة أن يبارك الحب الطاهر، وأن يبحث للابن الصغير عن عروس أخرى.. لكن كان للمخرج رأي مختلف، فأصرَّ على أن يحرم الفتي من فتاته، وأن يجعل الأب يعذِّب ابنه الذي من صلبه، فيرغمه على إتيان فعل مريع هو أن يذبح مشاعر أخيه، ويسرق فتاة أحلامه التي ستظلُّ بالتأكيد على حبها لفتاها.. وبهذا تكون التعاسة قد لحقت بالجميع.. وكل ذلك دون أي سبب حقيقي أو عقلاني أو منطقي، غير أن يخرج عبد الحليم حافظ إلى الشارع ليغني "جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت".

الذي جعلني أتوقف عند حبكة الفيلم هذه المرة هو أنها ارتبطت بشيء جنوني آخر سمعته من شخص يمتلك قناة تلفزيونية صار محور تندُّر الناس بمصر هذه الأيام بآرائه المضحكة التي يطرحها على الناس بمنتهى الجدية.. وهذا الشخص متواضع المدارك محدود التعليم معروف عنه أنه كان يقبِّل يد صفوت الشريف كلما التقاه. قال الأخ ذات مرة في معرض هجومه على الدكتور البرادعي مجاملة لأهل الحكم إن الرجل القادم من الخارج بعد سنوات طويلة لا يشبهنا في شيء ولا يعرف مشاكلنا ومعاناتنا.. وقد دلَّل على هذا الرأي بشيء يشبه ما فعله عماد حمدي في فيلم الخطايا.. إذ قال إن البرادعي لا يمكنه أن يعرف عدد أعواد الجرجير في الحزمة

الواحدة! وقال كذلك إن البرادعي ليس في قدرته أن يقوم بتزغيط دكر بط عتاقي حلّ موعد عشائه!

مصدر العجب ليس الهجوم على البرادعي، وإنما الأمثلة التي دلل بها على عدم جدارته وأهليته لمنصب رئيس الجمهورية. لقد كان هناك في السابق من هاجموا جمال مبارك وانتقدوا فكرة أن يترشّح لمنصب الرئاسة؛ لأنه غير مؤهل لهذا المنصب بسبب عدم معرفته بمصر والمصريين، وكان مما قالوه في هذا الشأن إن المحروس دلوعة ماما لم يركب الأوتوبيس مرة واحدة في حياته، ولم يقف في طابور عيش في يوم من الأيام، ولم يخرج بحثاً عن أنبوبة بوتاجاز بعد أن انطفأت النار تحت الطبيخ الذي لم ينضج بعد، كما أنه لم يقف في إشارة مرور في حياته؛ حيث يتم إخلاء الشوارع لدى نزوله، ولم يتدرَّج تدرُّجاً طبيعياً في الحياة العملية بحيث يعرف قيمة العمل والجهد. كل هذا قيل عن جمال مبارك.. وسواء كنت من شانئيه أو من محبيه فإنك لا يمكن أن تنفي منطقية حُجج خصومه.. أما الأخ لاعق يد صفوت الشريف فلم يجد سوى أمثلة فاسدة لانتقاد البرادعي، جعلت الناس تتعاطف مع الرجل وتضحك من الأعماق على السذاجة والخيبة القوية؛ إذ إن جهل البرادعي بعدد أعواد الجرجير في الحزمة الواحدة لن نقول لا علاقة له بمؤهلات الرئيس، وإنما سنقول إنه شرط لا ينطبق أيضاً على عمرو موسى، ولا على أحمد شفيق، ولا على المشير طنطاوي، ولا على جمال مبارك، ولا على أي إنسان يعجز عن ضرب الودع وإماطة اللثام عن المجهول! والأمر نفسه ينسحب على تزغيط البط الذي لا تجيده سوى الفلاحات ممن تقمن بتربية البط والوز. وقد قفز هذا المثال أمامي عند مشاهدتي لفيلم الخطايا، ورأيت أن عماد حمدي والرجل بتاع البط قد خاصما العقل والمنطق، وانحازا للهراء الذهني بنفس الكيفية.. الفرق الوحيد أن عماد حمدي كان يمثل، أما لاعق الأيادي فكان بيتكلم جد!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فول نابت

لمحت بالسوق القريب من البيت امرأة تجلس على حَجر تبيع الفول النابت واضعة أمامها حلة كبيرة مملؤوة، وكانت تنادي على بضاعتها بصوت حلو قائلة: اللوز يا نااااااابت. تذكرت نفس النداء الذي كنت أسمعه في الطفولة من بائع كان يمرُّ بشارعنا، وكنا نجري مندفعين نحو أمّنا محاولين منعها من دخول البلكونة واستدعاء البائع ثم الدخول معه في عملية مفاصلة في السعر تنتهي بشراء قدح من الفول النابت نفاجأ به بعد ذلك شاخصاً على المائدة، وكأنه صنف حقيقي من أصناف الطعام!

أحببت أصنافاً عديدة من الفول على رأسها طبق المدمس بالدقة وزيت الزيتون أو الزيت الحار، وتفاعلت بإيجابية مع طبق البيصارة الذي لم أعد أراه كثيراً لا أدري لماذا! كذلك عشقت أقراص الطعمية الساخنة ومعها أعواد الجرجير الطازج، وحزنت لما آل إليه حال الطعمية في السنوات الأخيرة؛ حيث نزلت من علیائها وفقدت الكثير من الكبرياء الذي طالما تمتعت به أيام كانت تُصنع من الفول المدشوش ومعه الكثير من الخضرة التي تمنح قرص الفلافل السحر والغموض، ثم تنزل الزيت بعد أن تُرشَّ بالسمسم اللؤلؤي البديع، وتخرج وقد ازدادت أَلَقاً وفتنة..

مؤخراً لم يعد للطعمية ذات الجلال بعدما أصبح الطعمجية متحجِّري القلوب يقللون في العجينة من كمية الفول، ويضيفون بدلاً منه لبابة العيش التي يتم جمعها من أماكن لا أريد أن أفصح عنها حرصاً على عشاق الساحرة المستديرة، ثم لا يكتفون بهذا وإنما يضعون الكُرَّات بديلاً عن الخضرة الفاخرة التي كانت تعدُّ مكوناً رئيسياً للعجينة، وبعد ذلك يرشون الطعمية بماذا؟ ليس بالسمسم وإنما بالكُسبرة.. آه والله!

ورغم هذا فما زالت صلتي بالطعمية قائمة عسى أن يأتي يوم يستبدل الله بالظالمين قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم! أما الفول النابت فقد انقطعت صلتي به من عشرات السنين، فذكرياتي عنه سيئة بوجه عام وهو يذكِّرني بالكرنب المسلوق الذي كان الوجبة الأساسية التي أطعمها السوفييت لشعوبهم حتى كرهوا الحياة، وقوَّضوا الدولة من أساسها!

لم أحب الفول النابت أبداً خصوصاً وأنه كان يحضَّر كوجبة أساسية في حالة المرض، يقدمونه ومعه فص ليمون، وكأن الليمون سيغيِّر من طبيعة أن الشوربة القابعة في الطبق هي شوربة فول! لطالما كان رأيي أن الشوربة دون قدر من الدسم من الممكن أن تكون عقاباً يُستخدم في الدنيا ضدَّ الجانحين وكذلك في الآخرة ليطال العصاة الذين لم يُحسنوا السلوك في دنياهم. وكنت أتعجَّب في الصغر عندما تأتينا زيارة ملفوفة في ورق جرائد من إحدى الجارات عبارة عن طعام تقدِّمه للفقراء وفاء لنذر قطعته على نفسها بعد أن تحقق مبتغاها، ثم لا ترى بأساً في أن تقدم منه لأصدقائها وجيرانها، وهو عبارة عن أرغفة محشوة بالفول النابت! كنت لا أصدِّق أن هناك من يريد أن يتقرَّب إلى الله بتوزيع الفول النابت على العباد؛ إذ إن الأمر في مفهومي بسيط للغاية، فليس مطلوباً من صاحب النذر أن ينذر لحماً ومرقاً إذا كان رقيق الحال ليس في استطاعته أن يملأ الأرغفة باللحم والأرز، لكن يظل بإمكانه

بطبيعة الحال أن يوزِّع سندوتشات فول مدمس أو طعمية بلدي، فلا تتأثر ميزانيته وفي نفس الوقت يسعد الجماهير التي تتلقى الهبة المرجوَّ بها وجه الله.

وقد حدث ذات مرة أن فتحت الباب لجارة وكانت أمي خارج البيت وتلقيت منها النذر، فلما فتشت في الأرغفة ووجدتها مترعة بالفول النابت، حملته دون مشورة أحد وأعطيته للبواب الذي كاد يرقص من فرط السعادة.. وما زالت حتى الآن أتحيَّر عندما أذهب إلى مسجد الإمام الحسين أو مسجد السيدة نفيسة وأرى الناس تتزاحم وتتخاطف أرغفة الفول النابت من يد الواهب؛ لأني بصراحة لا أصدِّق أن الجوع يرغم أحداً على تناوله، خاصة وأن الرغيف حاف قد يكون أشهى منه بالفول النابت.

ما زال هناك نوع من الفول لم آت على سيرته وهو أشد وأنكى من الفول النابت، ألا وهو الفول الحراتي وسوف أؤجل الكلام عنه لحديث آخر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بلاد ربنا الجميلة

كل مرة أسافر فيها إلى بلاد ربنا الجميلة تتناوشني الأفكار بخصوص الناس والحياة.. يحدث هذا إذا زرت ريفاً جميلاً أو جلست على ضفاف بحيرة بديعة أو بالقرب من نبع صافٍ أو فوق تلة تُشرف على وادٍ ذي زرع وورد وفل وياسمين.

أفكر كيف أن هؤلاء الناس يستطيع الواحد منهم أن يستمتع بالحياة دون أن يكون فاحش الثراء أو حتى دون أن يكون مجرد ثري فقط دون أي فُحش! فالسكن على ضفاف البحيرات ليس مكلفاً جداً، لكنه في متناول الأسر المتوسطة، كذلك الصعود إلى التلال والبناء فوقها ليس صعباً، وأيضاً اقتناء كوخ في الغابة ليس بالأمر العسير.. وهنا لا بد من التنويه أن الطبيعة الغنية في بلاد ربنا الجميلة ساعدت على وجود وانتشار الأماكن ذات الطلة الأخاذة الساحرة بكثرة بعيداً عن زحام المدن وضوضائها وتلوثها، وقد ساعد هذا مع الإدارة الرشيدة للدولة ومد الخدمات لكل مكان في إمكانية الاختلاء بالطبيعة والعيش في ظلها الوارف. وحتى بالنسبة للذين لا تساعدهم قدراتهم المالية على السكن والإطلال الدائم على ما يبهج النفس ويفتح الشهية للحياة فلا يستطيع أحد أن يمنعهم من صيد السمك على النهر أو استئجار مركب في البحيرة أو حتى التمشية على الكورنيش.

كل هذا يرد على ذهني عند السفر للخارج، ووقتها أقارن بين الطبيعة الخلابة التي أراها أمامي وبين الطبيعة الفقيرة في بلادنا الصحراوية المجدبة، كما أجد أنه من الأسهل الحصول على بيت صغير يطلُّ على بحيرة في أوروبا أو أمريكا من الحصول على بيت مماثل ذي إطلالة على بحيرة قارون بالفيوم في مصر مثلاً.. فهنا قد استولت أسماك القرش البشرية على كل الأماكن المميزة، ورفعت أسعارها واستطاعت بمساعدة المال المسروق أن تستحوذ على ما يسرُّ النظر ويبهج النفس دون أن تشرك فيه عوام الناس..

ويرد على خاطري أيضاً كيف أن غياب الرحمة في بلادنا قد منع الناس العاديين من مجرد التمشية على كورنيش النيل في بلد يمتدُّ فيه النهر الخالد بطول أكثر من ألف كيلو متر.. نعم ألف كيلو متر ولا يوجد بكل مدينة أو بلدة يعبرها النيل بضعة أمتار بالمجان لراغبي إمتاع النظر واستنشاق الهواء. فعلى طول الكورنيش استولى الأقوياء على الأراضي فبنوا عليها النوادي الخاصة والمقاهي والكافيتريات، وفي مدينة مثل القاهرة تحتلُّ نوادي الشرطة والقوات المسلحة والنقابات والهيئات معظم كورنيش النيل من شبرا إلى حلوان دون أن تسمح للإنسان الفقير بمكان يحصل منه على إطلالة على النهر الذي أرسله الله للناس جميعاً! ولعل هذا هو سبب الظاهرة التي ننفرد بها عن العالمين، وهي نزول الناس من البيوت وبحوزتهم كراسٍ صغيرة الحجم والتوجُّه بها نحو الكباري والجسور التي تعبر النيل والجلوس على أرصفتها لاقتناص شمة هواء؛ ذلك أنه من حسن الحظ أن الضباع الضارية لا تستطيع أن تبني بيوتاً أو منشآت على أرصفة الجسور وإلا انهار الجسر!

والواقع أن هذا ليس حال مصر وحدها، ففي بعض البلاد العربية يستولي الحكام على مساحات شاسعة من الأراضي تضم كل الأماكن المميزة المرتفعة والمنخفضة

والمنبسطة، ويبنون عليها لأنفسهم القصور والمنتجعات، وفي بعض الأحيان يتركونها جرداء ويحرمون الناس منها.

الخلاصة أن من كان فقيراً وأراد أن يحصل على نصيبه العادل من الطبيعة التي خلقها الله للناس كافة، فعليه أن يسافر بعيدا عن الدنيا الضيقة الكئيبة إلى رحابة بلاد ربنا الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشهرة المخلوطة بالعار

الرغبة في الشهرة والأضواء كثيراً ما تسحق كرامة الناس، وتنال من مقدارهم، فهناك من يحلمون بأن يصيروا معروفين، وأن يحيط بهم الناس أنّي تحركوا، ويشيروا إليهم في غدوهم ورواحهم.. هذا يرضي نوازع لديهم ويخفف من احتقانهم الداخلي، كما أنه يبث في نفوسهم الطمأنينة إلى حين!

لكن مشكلة هؤلاء أن حبَّ الشهرة يشبه إدمان المخدر.. في البداية تقوم الجرعة البسيطة بدورها بفعالية فتجلب الهدوء والسكينة، أما بعد فترة فإن نفس الجرعة لا تعود تؤدي المطلوب فيحتاج المدمن لمضاعفة الكمية وهكذا.. نفس الأمر يحدث لمن يعتادون الأضواء ويجمعون المعجبين والمعجبات.. لا يشبع نهمهم أبداً ويشعرون بالضياع إذا بهتت الشهرة وانحسر الضوء وأخذ المعجبون في التلاشي. وربما كان هذا هو السبب في أن بعضهم لا يجد غضاضة في إطلاق الشائعات على أنفسهم بغرض لفت الانتباه، ومنهم من يصل في هذا الأمر لمستويات لا يصدِّقها عقل. ولعل هناك من يذكر الممثلة التي استعانت بأحد الصحفيين في السبعينيات لإشاعة أن الفنان عمر الشريف قد خطبها وأن العُرس والزفاف في خلال أيام.. فعلت هذا على الرغم من أنها كانت في ذلك الوقت متزوِّجة وعلى ذمَّة رجل طويل عريض!

وهناك كذلك المطرب الراحل الذي كان صبياً صغيراً عندما قدَّمه عبد الحليم حافظ في أحد حفلاته، ثم تبنَّاه فنياً ومنحه اسمه للشهرة الفنية وأخذ يدعمه ويدفع به.. هذا المطرب أراد بعد أن صار شاباً أن يستفيد من شعبية العندليب الأسمر في جلب مزيد من الشهرة لنفسه، فسمح للصحافة أن تتحدَّث عن الشبه الكبير الذي يربطه بحليم في الشكل والملامح وأن تربط بين هذا وبين احتمال كونه ابناً للمطرب الكبير، ولم يعترض عندما بدأ التلميح يتحوَّل لتأكيدات صحفية صريحة بأنه ابن غير شرعي للمطرب الكبير من علاقة عابرة قديمة.. بالعكس صمت عن الإشاعة وتركها تنمو وتترعرع حتى أصبحت في مقام الحقيقة في أذهان الناس. لم يسؤه أن هذا الكلام يطعن شرف أمه ويصمها بالفجور والانحلال، لكن كل ما شغله هو أن هذه الشائعة تكفل له أن يتصدَّر صفحات الجرائد، وأن يظل حديث الناس بصرف النظر عن فحوى هذا الحديث! ومن الغريب أن هذا المطرب الشاب قد مات بجرعة مخدرات زائدة، وعُثر على جثته ملقاة بالشارع، فكأنما قد آثر أن ترتبط وفاته بالفضائح كما ارتبطت حياته!

يوجد كذلك صنف آخر يشتغل بالحياة السياسية والصحفية لكن بلا إنجاز أو قبول.. وهؤلاء قد توافقوا على فكرة إبليسية أدركوا أنها تكفل لهم الشهرة ولأخبارهم الذيوع والانتشار، وهذه الفكرة تقضي بأن يتصلوا بإسرائيليين ويقيموا علاقات مع رموز صهيونية وأن يجتمعوا بهم دون داع، وبعضهم قد يتطوَّع بالسفر إلى إسرائيل ومقابلة مسؤولين في الكيان الصهيوني أياديهم ملوثة بدماء العرب، والتقاط الصور وهم يتسلمون جوائز السلام من القتلة والسفاحين!

ومن الطبيعي أن هذا يؤدي إلى إثارة ثائرة الناس ضدهم، الأمر الذي يقود إلى أن تنفتح أمامهم أبواب الصحف فيدلوا بأحاديث ويحلوا ضيوفاً على البرامج التلفزيونية. هذه الفكرة تكرَّرت مرات عديدة وكفلت لأصحابها شهرة مدوِّية وبقاء على صفحات الجرائد لأيام طويلة.. صحيح أن هذه الشهرة قد حلَّت عليهم مخلوطة بالعار ومصحوبة باللعنات، لكن هذا لا يهم.. المهم هو الاشتهار والتمدُّد على الخريطة الإعلامية، والزمن كفيل بأن يجعل الناس تنسى أسباب الشهرة وتتعامل مع صاحبها باحترام.. وحتى لو لم يأت الاحترام؛ فالشهرة هي القيمة الكبرى التي تهون إلى جوارها كل قيمة أخرى!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21 جـــــرام

هل لدى الشيطان القدرة على إغواء كل هؤلاء الناس.. أم إن له مساعدين يعملون تطوُّعاً؛ إيماناً منهم برسالته؟!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الإساءة وروح الدعابة

طريق الإساءة يشبه من يبدأ في دحرجة كرة ثلج.. تأخذ الكرة في الكبر كلما انزلقت حتى تصير جبلاً جليدياً لا يمكن زحزحته. وهكذا أيضاً يفعل من يرتكب إساءة في حق آخر دون أن يدري أن الاستسلام للغضب قد يأخذ بالشخص إلى سكة لم يقصد من الأساس أن يدخلها، وأن يمضي ويتوغَّل بها.. هذه السكة المتفرِّعة عن طريق الإساءة هي سكة الافتراء!

فلو افترضنا أنك غضبت من أحد ضايقك بشكل شخصي، فمن الطبيعي أن تضايقه وتنكِّد عليه بشكل شخصي.. لكن ليس من العدل أن تسيء إليه في مكان عمله مثلاً أو أن تسعى في حصوله على جزاء إدارياً لا علاقة له بالخلاف الشخصي بينكما. لأنك إذا تصرَّفت على هذا النحو وتصوَّرت أنك ثأرت لنفسك وانتهى الأمر فسوف تكون مخطئاً، ليس فقط لأنك ستدفعه للردِّ المضاد ولكن لشيء أخطر من هذا هو أنك ستكون مضطراً لتبرير ما فعلت أمام كل من يتوجَّه إليك متسائلاً: لماذا فعلت بفلان ما فعلت؟ ستجد نفسك تنحدر إلى طريق رهيب من الكذب والافتراء لا أعتقد أنك كنت تقصده من البداية.. ولا أظن أنك سوف تصارح من يسألونك بحقيقة الأمر وتقول لهم إن فلاناً قد أغاظك أو سخر منك، فاضطررت إلى إيذائه في لقمة عيشه، لكنك حتى تبرر فعلتك ستنسب إليه أفعالاً شائنة لم يفعلها وأخطاء عملية لم يرتكبها، كما أنك ستلصق به صفات أنت أول من يعلم أنه أبعد الناس عنها.. كل هذا ستفعله للدفاع عن نفسك وعن موقفك الخاطئ، وستجد نفسك في النهاية قد ارتكبت جريمة بشعة في حق إنسان بريء فقمت بتلويث شرفه وتحطيم سمعته؛ لتأكيد أن ما فعلته به كان مستحقاً أو أقل مما يستحق!

لهذا فإن وعد الله للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس بالجنة هو وعد جميل؛ لأنه -سبحانه وتعالى- يعلم أن كظم الغيظ ليس بالأمر الهين، ويعلم أن الاستسلام للانفعال والاستجابة لدواعي الغضب هو أمر مريح نفسياً وأسهل بكثير من تحكيم العقل والارتفاع فوق الصغائر. غير أن القليل من الناس هم من يستجيبون لكبح جماح النفس الغاضبة أو على الأقل الاكتفاء بأن يكون رد الفعل مساوياً للفعل.. وقد برَّر لي أحد الأشخاص ذات يوم افتراءه على زميله وإلحاق أفدح الضرر بمسيرته المهنية وسمعة عائلته في آن واحد تبريراً عجيباً؛ إذ قال لي: لقد كان دائم السخرية مني والتنكيت عليَّ أمام الزملاء، وأنا بصراحة لا أملك طلاقة لسانه ولا خفَّة دمه حتى أردَّ عليه بالمثل فماذا أفعل؟ وجدت نفسي أسعى لحرمانه من ترقية كان يستحقها، وعندما وُوجِهت بأنني ظلمته لم أجد أمامي سوى أن أتهمه بتسريب أسرار المكتب للمنافسين، كما قمت بإطلاق الشائعات بحق زوجته أيضاً! ثم أضاف: لا أنكر أنني نادم لكني لا أستطيع التراجع، وإلا بدوت في صورة سيئة جداً أمام الناس!

هكذا تبدأ الإساءة بسيطة نسبياً، ثم تخرج الأمور عن السيطرة عندما نُسأل عن أسبابها، فنضطر للكذب والتشنيع والاغتيال المعنوي.

ورغم أن الإساءات التي تتطوَّر إلى كوارث لا تحدث دائماً بسبب السخرية والتنكيت، وإنما هناك دوافع أخرى كثيرة، إلا أنني على سبيل الاحتراز الوقائي أدعو الظرفاء وأصحاب الدم الخفيف إلى عدم ممارسة هواياتهم مع من لا يتمتع بروح الدعابة ولا يملك القدرة على الردِّ بذات الطريقة؛ لأنه في الغالب سيرد بطريقة أخرى ليس بها من روح الدعابة أي شيء!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحمامة المطوَّقة

ورد ذكر الحمامة المطوقة في القصة التي تحمل نفس الاسم في كتاب كليلة ودمنة الذي كتبه عبد الله بن المقفع، ويروي فيه قصصاً عن الحيوان والطير. ويقال إن الحمامة المطوقة هي التي يكسو رقبتها ريش من لون مختلف يشبه الطوق، ويضفي جمالاً على عنق الحمامة.

في الشهر الماضي نشرت الصحف أن قوات الشرطة بمحافظة القليوبية ألقت القبض على حمامة كانت تطير على ارتفاع منخفض (ربما لتفادي الرادار!)، وأن القوات تمكَّنت من إنزالها بسلام، حيث وجدوا مربوطاً بإحدى قدميها ميكروفيلم من النوع الذي يحوي خرائط ومعلومات سرية، وكذلك رسالة مكتوب عليها "إسلام إيجيبت 2012".. وذكرت الصحف على لسان مصدر مسؤول أنه تم التحفُّظ على الحمامة والميكروفيلم والرسالة وإرسالهم للمعمل الجنائي، كذلك تم انتداب خبراء من الإذاعة والتلفزيون؛ لتفريغ الميكروفيلم والعمل على كشف سر الحمامة. ولم ينسَ المصدر أن يؤكد على وعده بالكشف عن التنظيم الذي يستخدم الحمام في التراسل ونقل المعلومات في أسرع وقت!

من الطبيعي أن الخبر أصاب الناس بالدهشة وأطلق التكهنات من عقالها، فمن قائلٍ إن موضوع الحمامة هذا قد خرج من أحد أفلام الستينيات عندما كان عادل أدهم يعتمد على كنعان وصفي في توصيل الميكروفيلم للرجل الكبير، ومن قال إن هذه الحمامة استحقَّت لقب المطوقة بعد أن طوَّقتها مدرَّعات الشرطة قبل القبض عليها، ومن زعم إن الميكروفيلم يتضمَّن الخطوط التفصيلية لمشروع النهضة، وأن طائر النهضة الذي تصوَّره الناس في حجم الرُخِّ الأسطوري قد يكون هو الحمامة ذاتها! وهناك من توقَّع أن المخبرين وأمناء الشرطة قد يتصارعون على الفوز بالحمامة وعمل شوربة عليها، وأن المسكينة بعد أن كانت تزهو بين أقرانها بالدور الوطني الذي تؤديه ستجد نفسها محشوة بالفريك!

الآن وقد مضى أكثر من شهر على موضوع حمامة "إسلام إيجيبت 2012" فإن الناس تتساءل: إلام وصل الخبراء الذين فحصوا الرسالة والميكروفيلم؟ وهل كان بهما ما يؤثر على الأمن القومي؟ ويتساءلون أيضاً عن سرِّ العصابة التي خرجت من زمن الحمام الزاجل.. هل هذه العصابة تلتزم بأليات ووسائل السلف الصالح، فتُقاطع الإنترنت، وترفض استعمال الفايبر والتانجو والواتس أب؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلم يكن عليهم أن يُحسنوا تدريب حمامتهم حتى لا تقع في يد العدو؟ نحن ننتظر الإجابة على تساؤلات الناس حتى لا يضطروا إلى ترديد كلام فارغ من عينة أن تراث الشرطة في فبركة القضايا الوهمية بغرض إلهاء الناس ما زال متصلاً، وأن شرطة مرسي هي نفسها شرطة مبارك مع كفاءة أقل في التلفيق! وننتظر أيضاً من يطمئننا على مصير الحمامة، وهل يا ترى عيَّنوا لها من يرعاها ويضع لها الحَبَّ والماء بانتظام؛ باعتبارها من الأحراز التي يتعيَّن صيانتها إلى جانب الرسالة والميكروفيلم.. مع وجوب التنبيه على الجميع بعدم التلاعب في الأحراز أو اللعب في الحمامة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

ثلاث بطاطين

وقفت بجوار "عم عسل" بائع البطاطا الذي اعتدت أن أشتري منه قطعة ساخنة بنار الفرن في أيام الشتاء حيث يعسكر على ناصية شارعنا. كان الرجل يغني وبدا أنه منشرح المزاج وهو ينشد قائلاً: تلات بطاطين يا واحشني دي ليلتك طين! ده قلبي حزين وعقلي رزين.. وحمدي بدييين!

ضحكت بشدة على أغنية "عم عسل" التي أتت على وزن "تلات سلامات" للرائع محمد قنديل من ألحان محمود الشريف. لم تكن المرة الأولى التي أستمع لبائع البطاطا العجوز وهي يغني أغنية معروفة بعد تغيير كلماتها وارتجال كلمات من تأليفه على نفس اللحن. قلت له: ألا تعجبك كلمات مرسي جميل عزيز في الأغنية الأصلية؟ وما هي حكايتك يا "عم عسل" مع البطاطين؟ ضحك الرجل فبان فمه الخالي من الأسنان وقال: ألم تشاهد حلقة عماد أديب التي ردَّ فيها على باسم يوسف بعد السخرية التي نالها من باسم في "البرنامج"؟ قلت له: يا "عم عسل".. هذا كلام قديم. قال: المسائل المتعلقة بشخرمة الدماغ لا تسقط بالتقادم يا صديقي!

أدهشني كلامه عن شخرمة الدماغ، وشعرت بأني أسأت تقدير بائع البطاطا الفيلسوف. سألني: ألم تسمع الأستاذ عماد وهو يتوعَّد المذيع الذي أحرجه بأنه سيقوم بالتنقيط عليه كل يوم؟ قلت: بلى سمعته. قال: أوَلم تنصت إلى نصيحته لباسم بأن يذهب إلى التوحيد والنور فرع المهندسين لشراء ثلاث بطاطين تحميه من الماء الذي سينهمر عليه؟ قلت: سمعت وضحكت. قال: يا حلاوتك.. سمعت وضحكت! ألم تدرك ما في هذا الكلام من غرابة؟ قلت مرتبكاً: ماذا تقصد؟ أجاب: ليست المشكلة في اختيار محلات التوحيد والنور، ولا هي كذلك في فرع المهندسين بالتحديد.. إنما الغرابة تكمن في لا منطقية الحل الذي طرحه الأخ عماد على الأخ باسم، بعد أن صدَّر إليه مشكلة نقط الماء التي سيسكبها على رأسه كل يوم.

لم أقاطعه فمضى: إن من أراد أن يتقي المطر يتزوَّد عادة بمظلة تسمح للماء بالانزلاق، لكنه لا يفكر أبداً في أن يضع على رأسه بطانية؛ ذلك أن البطاطين ستقوم باختزان الماء قبل أن يتسرَّب ويجعل الرأس كأنما تعوم في بحيرة. قلت: آه والله معك حق. قال: إن باسم يوسف عندما عقب في حلقة تالية على كلام أديب تناول أشياء كثيرة، لكنه لم يتطرَّق لمسألة عدم جدوى البطاطين؛ لحماية الرأس من الماء. قلت: هذا صحيح، لكن هل تظن أن عماد أراد أن يقدِّم لباسم نصيحة مضروبة بدلاً من أن يخدمه ويدله على مكان يشتري منه شمسية؟ قال عم عسل: كل الاحتمالات واردة.. ممكن تكون فاتت عليه، وممكن يكون قاصد يورَّط باسم فيصدِّقه ويشتري البطاطين. قلت: وهل أوحت إليك هذه الحكاية بأغنية ثلاث بطاطين التي كنت تغنيها؟ قال في زهو: نعم. قلت: طب ممكن سؤال أخير؟ قال: تفضل. قلت: ما علاقة "حمدي بدين" بالغنوة، خاصة أن الرجل الذي كان قائداً للشرطة العسكرية أيام المشير طنطاوي لا شأن له بموضوع البطاطين؟ نظر لي في عتاب وقال: اتوكل على الله وما تخلينيش أتغابى عليك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

حـــيرة

أشعر بحيرة شديدة من الرسائل التي يتوالى وصولها إليَّ كل يوم من بعض القراء الذين لهم محاولات في كتابة الشعر والقصة والمقال. من أسباب الحيرة أنني لا أعرف لماذا تصلني هذه المحاولات للكتابة؟ فلا أنا رئيس تحرير جريدة ولا أنا مسؤول بدار نشر، كما أنه ليست لي أي ولاية على أحد ممن يمكنهم أن يساعدوا هؤلاء الشباب على النشر. غير أن السبب الأساسي للحيرة يكمن في أن أصحاب الأعمال يطلبون مني إبداء الرأي بصراحة فيما يكتبون بصرف النظر عن النشر. وبالرغم مما أشعر به من امتنان نتيجة وثوق هؤلاء الشباب بي ورغبتهم في أن ينالوا اعترافي، إلا أن هذه الثقة تضعني في حرج حقيقي يعود إلى أمرين: الأول أنني لم أعد أملك الوقت الذي أنفقه في قراءة أعمال غير مضمونة النتائج، والثاني أن التجارب علَّمتني أن أقلَّ القليل مما يحمله لي البريد من محاولات في الكتابة هو ما يحمل قيمة حقيقية.

في البداية عندما كنت أتعامل مع هذه الأمور بجدية واحترام كنت أصارح صاحب العمل برأيي الحقيقي دون النظر لأي اعتبارات، لكن هذه الصراحة تغيَّرت بمرور الوقت؛ ذلك أن الصدمة الشديدة التي كانت تعتري الشاب نتيجة قيامي بمنح عمله تقديراً ضئيلاً كانت تفاجئني وتجعلني أنكمش على نفسي خوفاً على مستقبل الأدب والكتابة. كنت في الحقيقة لا أندهش من المستوى الفني الضعيف بقدر ما كنت أفزع من أن الشباب الذي يحلم بأن يضع اسمه بين كبار الأدباء والشعراء لا يجيد معظمهم القراءة والكتابة والإملاء، بمعنى أن مستواهم العلمي والثقافي يقف عند السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية، أما معارفهم التي حصَّلوها فقد جمعوها من الحياة ومن برامج التلفزيون!

ومع هذا فإنني أعترف أن صدمة الشباب فيمن يصارحهم بالحقيقة أحياناً ما كانت تستند إلى بعض الأسباب الموضوعية، ذلك أنهم يرون أعمالاً لا تفترق عما كتبوه منشورة بالصحف والمجلات طول الوقت، لذلك فهم يتصوَّرون أن من لجأوا إليه طلباً للرأي إما لا يفهم العمل، أو لعله يغار منهم ويخشى المنافسة! ولعل الضحالة والخفة والاستسهال التي صارت طابع العصر تتحمَّل جانباً من الذنب بعدما تأثر جيل الشباب بالهراء الذي يقرأونه، وتصوَّروا أنه المثل الأعلى لفنِّ المقال والقصة والقصيدة، ثم صاروا يقلدونه وهم يعتقدون أن هذا هو المستوى الطبيعي للموهوبين!

على أي الأحوال لم أعد أصارح أحداً برأيي الحقيقي في العمل الذي أرسله لي إلا إذا وجدت صاحبه يمتلك أدوات جيدة تؤهله ليكون كاتباً، وهؤلاء لا يظهرون إلا على فترات متباعدة.. أما الغالبية العظمى من الذين يكتبون دون أن يكون أحدهم قد قرأ كتاباً في حياته، فهؤلاء أصبحوا يحظون مني بمديح لم يحصل عليه المتنبي لا في حياته ولا بعد وفاته، ذلك أنني قد أدركت بعدما عركني الزمن أن الحياة العابثة لا تحتمل الصرامة والجدية طول الوقت، ولا تستأهل أن نُغضب الناس بدعوى حرصنا عليهم، وفهمت أن الذي يطلب رأيك في عمله لا يفعل ذلك لأجل أن تنكِّد

عليه وتحرجه برأيك الحقيقي، وإنما يقدم عمله لك؛ لأنه يحبك ويتعشم فيك، ويحتاج منك أن تمنحه أملاً يعينه على متاعب حياته.. يحتاج منك أن تطيِّب خاطره بكلمات لن تكلِّفك شيئاً بينما تعني له الكثير..

إني واثق من أن أحداً من هؤلاء لن يكون كاتباً في يوم من الأيام، لكنه لن ينسى لك ذوقك ورقَّتك وحُسن صنيعك. لكن وآه من لكن.. في بعض الأحيان قد تواجه مأزقاً مترتباً على المدح الذي خصصت به الكلام الفارغ الذي قرأته، ويتمثل المأزق في أن صاحب الكلام الفارغ أو صاحبته قررت -استناداً إلى تقييمي الإيجابي- أن تنشره على نفقتها الخاصة في كتاب، ولهذا فإنها تطلب منك أن تكتب المقدمة لهذا الكتاب؛ حتى توضح للقراء مواطن الحُسن في العمل الذي جذب انتباهك!

حدث هذا معي مؤخراً، وما زلت أفكر في طريقة أتملَّص بها من كتابة المقدمة دون أن أثير شكوك صاحبة العمل في موهبتها الأدبية الأصيلة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورقة لحمة

لفتت الجلبة الصادرة من الفرن البلدي على الناصية انتباهي فاقتربت لاستجلاء الموقف. كان الرجل ينتفض من الغضب وهو يلوِّح بقبضته في الهواء وعروقه تكاد تنفجر وهو يصرخ في الفران القابع خلف طاولة الخبز يرص العجين ويدفع به للنار. قال الرجل: قل لي الحقيقة حتى أرتاح.. قل إنك أكلت اللحمة وقد أسامحك، لكن حكاية القطة هذه لا تنطلي على.. كيف يمكن للقطة أن تأكل ورقة اللحمة وهي خارجة من الفرن؟ وأنّي لها أن تفتحها من الأساس؟ قال الفران وهو ينظر حوله في خبث واضح: والله العظيم القطة هي التي أكلت اللحمة وليس أنا.. كُفَّ عن افترائك واتركني في حالي! التفت الرجل الذي بدا على هيئة الموظفين للناس التي تجمَّعت على الصياح، وقال يُشهدهم: يا ناس يا هووه.. ماذا حدث للدنيا؟ هل مات الشرف وانتحر الضمير؟ أنبوبة البوتاجاز فرغت وفشلت في استبدالها، ولما كنت قد اعتزمت عمل ورقة لحمة بالفرن فلم أجد مفراً من العودة للأيام الخوالي حين كان الناس يودعون صواني البطاطس والمكرونة بالبشاميل عند الفرن البلدي ليسويها. قمت بشراء قطعة لحمة موزة من عند الجزار يعلم الله أنها كلَّفتني ربع راتبي، ثم أحضرت البصل وحبة بطاطس مع فلفل ألوان وخلطت الجميع بالتوابل، ثم قمت بلفِّ المشروع في ورق الفويل، ونزلت من البيت وسلَّمته لهذا الرجل. علا صوت الفران مؤمناً على كلامه: مضبوط يا أستاذ.. وهل أنكرتُ أنك أحضرت لي ورقة اللحمة؟ لكن المشكلة أن البسَّة بنت الحرامية غافلتني بعد أن أخرجتها من الفرن، وأنشبت فيها أسنانها ثم حملتها ولاذت بالفرار.. فما ذنبي أنا؟

قال أحد العقلاء في محاولة لحلِّ المشكلة موجهاً كلامه للفران: نحن نعلم أنك رجل أمين، ولم تسرق اللحمة لكنك ملزم قانوناً بتعويض الرجل بصرف النظر عن الجاني. قال الفران اللص: وكيف أعوِّضه؟ أنا رجل غلبان على باب الله. ردَّ صاحب اللحمة: وهل أنا أقف بباب أحد آخر؟ إن الله وحده عالمٌ بحالي ولا أريد أن أستفيض. قال الفران بعد أن أحسَّ بالحصار: اسمع يا أستاذ.. أنا مستعد أشتري لك رغيف لحمة راس وربنا يعوض عليَّ. نظر الموظف للناس وقسمات وجهه تتراوح ما بين الابتسام والأسى، ثم ضحك طويلاً قبل أن يتوقَّف قائلاً: لقد حرمني هذا الرجل من أكل اللحمة، والآن يريد أن يعوِّضني برغيف لحمة راس.. هل تعرفون يا حضرات فلسفة لحمة الراس والفشة والطحال والممبار؟ إنها محاولة عبقرية من الفقراء للتغلُّب على بؤسهم وإقناع أنفسهم بأنهم يأكلون الزَّفَر بينما هم في حقيقة الأمر يأكلون زبالة! إن الأمر يا سادة لا يتعلَّق بورقة اللحمة وحدها على الرغم من أهميتها.. إنه لمن لا يعلم عبارة عن ترتيب سعيت إلى إنفاذه وقمت بالتحضير له منذ مدة طويلة.. بروتوكول قمت بإعداده داخل ذاتي يبدأ بدعوة زوجتي على الغداء وتناول ورقة اللحمة في حديقة الأزهر، ثم أخذها بعد ذلك والذهاب بها إلى حفل زياد الرحباني، وأخيراً تمشية ليلية على الكورنيش نستعيد فيها أيامنا الماضية.. والآن اختلَّ البرنامج بكامله ولم يعد قابلاً للتنفيذ.. هذا اللصُّ كسر حلمي الصغير. قال الرجل كلماته الأخيرة ممزوجة بدموعه التي لم يستطع دفعها. في نفس الوقت

كان الفران يتناول من تحت البنك زجاجة سفن أب أخذ يرتشفها في نهم؛ ربما لأن ورقة اللحمة كانت من الدسامة بحيث احتاجت إلى مشروب مهضم!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وزن الـــروح

المخُّ البشري معجزة إلهية يحار المرء في فهمها، وتندفع التساؤلات بشأن هذا المخ، بالأخصِّ عندما نكون بصدد الحديث عن أحد العباقرة أو أصحاب التفكير الاستثنائي. ولا يستطيع أحد مهما اجتهد أن يفهم سرَّ القدرات الإبداعية التي يتميَّز بها البعض، ولا من أين تأتيهم الأفكار المبتكَرة غير المسبوقة.

كان لي صديق من العلماء الأفذاذ في مجاله أطلعني ذات يوم على بعض اختراعاته، فأذهلني ببساطة أفكاره ورؤيته غير المسبوقة للمشكلات وقدرته على ابتكار تكنولوجيا منخفضة التكاليف في مجال توليد الطاقة من الرياح ومن الشمس. أصيب هذا الصديق بمرض السرطان ورحل عن دنيانا. يوم قمنا بتشييعه إلى مثواه الأخير وجدت نفسي لا أستطيع دفعاً للأسئلة التي تصارعت في عقلي ليس عن مصير مخترعاته التي قدَّمها للهيئات البحثية، وإنما عن الأفكار التي طوى عليها مخه ولم ينفِّذها.. ما مصيرها؟ وأين ذهبت؟ هل رافقته إلى القبر أم انتقلت بالموت إلى جمجمة أخرى تستطيع حملها والتعامل معها بالإضافة والتطوير؟ وإذا كانت قد انتقلت فكيف انتقلت؟ وهل تعرَّض بعضها للتلف في مرحلة النقل؟ وصاحِب الجمجمة الجديدة أين يكون؟ وهل هو في بلدنا أم في بلد آخر؟

كل هذه الأسئلة غير المعقولة دارت في رأسي وأنا أشيِّع صديقي إلى قبره، ووقتها شعرت بالحسرة والمرارة؛ لإدراكي عبثية ما أفكر فيه؛ ذلك أنني رجَّحت أن الأفكار التي يحتويها الدماغ تموت بموت صاحب الدماغ، ولا يمكن الحصول عليها بعد وفاته.. وربما لهذا السبب تحرص الدول المتعادية على اغتيال العلماء في صفوف بعضها بعضاً لتقطع خيط الأفكار وتسلسله، وتقف به عند مراحل يمكن التعامل معها قبل أن يستفحل الخطر. لكني مع ذلك تمنَّيت لو أن الإبداع الذي يمتلئ به رأس العالم أو الأديب يكون مما يمكن استخلاصه بطريقه ما بعد الوفاة؛ ذلك أن تفكيري القاصر يصعب عليه استيعاب مسألة ضياع الأفكار بعد أن يتم التقاطها بواسطة أحد العقول لمجرد أن صاحب هذا العقل قد صدمته سيارة طائشة مثلاً!

ولدينا على سبيل المثال موسيقار عبقري مثل سيد درويش (1892-1923) عاش على هذه الأرض 31 سنة فقط كانت كافية لأن يُحدث ثورة في الموسيقي العربية.. وكثيراً ما أسرح في مغزي حياة هذا الرجل القصيرة، وأفكِّر فيما كان يمكن لموسيقانا العربية أن تصير لو أنه عاش ثلاثين عاماً أخَر؟ أو لعلَّ المشيئة الإلهية تكون قد قضت بأن يلتقط أحد آخر ما تبخَّر من دماغه بعد الموت وأكمل المسيرة الفنية.. من يدري؟ ومثله أبو القاسم الشابي (1909-1934) الشاعر الفذ الذي مات في سنِّ الخامسة والعشرين دون أن ينجز مشروعه الشعري.. أين ذهب الإبداع الذي كان يملأ تجاويف مخه؟ هل أكمله شاعر آخر أم إن كل إنسان هو تجربة فريدة في ذاته، ولا يمكن أن تطابق بصمته الإبداعية بصمة أخرى؟

وتحضرني هنا نماذج سلوكية سعى أصحابها للاستفادة من قدرات المخلوقات بعد مماتها على نحو عجيب، فهناك من يُقبل على التهام "طاجن مخاصي" وهو يظنُّ أنه سيحوذ قوة جنسية خارقة بعد أن يأكل أعضاء الثور التناسلية! وهناك كذلك من

يأكل أمخاخ الحيوانات باستمتاع كما لو أنها ستمنحه قدرات ذهنية لم تحزْها هي ذاتها عندما كانت على قيد الحياة!

وهناك النظرية العلمية الشائعة عن "وزن الروح" التي تقول إن الإنسان يفقد بعد الموت مباشرة وصعود روحه إلى بارئها ما مقداره 21 جراماً، وهذا الموضوع تناوله المخرج "أليخاندرو جونزاليس" في الفيلم الأمريكي "21 جراماً".. وقد قدَّر البعض أن هذه الجرامات الإحدى وعشرين هي وزن الروح.. فهل يمكن القول بأن الإبداع لصيق بالروح يعيش في كنفها ويصعد معها عند الموت إلى السماء؟

ما يحزنني هو أنني لن أعرف إجابة هذه التساؤلات لا الآن ولا بعد الموت على الأغلب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة -والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات، نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع..

لذلك،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك -بعد الانتهاء منه- فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنه أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل!!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام إلى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء..

في الحَشوم

تلك الأيــام

أحلام التلامذة

الميني بار

ومن شر حاسدٍ إذا حسد

سماح يا أهل السماح

أحزان شارع "9"

أحبُّوا أعداءكم!

ألطف الكائنات!

يا ضارباً في الحَشوم

هيبة المؤخرات

خُبز وهارمونيكا

الأسانسير

القفز فوق المراحل

كومــودو

سيدة النجاة

إذا خَلَت اليدان

الطبيخ التركي.. والشموخ

بطعم الزبدة الفلاحي

شخصيات مهمة

هيبة المؤخرات

أبو النجف

مشروع تخرّج

المدير.. ابن الكئيبة!

الخير.. وسوء العاقبة
البراءة التي رحلت
بحبك يا مجرم
الحياة حلوة
مساحة إنسانية
سأذهب إلى السينما
فايزة أبو النجف
كلمة السر.. جَزَر!
جمّيز وعاصم الإسترليني
صديقي العجوز جداً
بروتوكول الشبح.. المتعاص!
مرشَّحون ولقطات سينمائية!
تاكسي المطار
المبلغ المطلوب من السيد فلان!
عن المضيفين والمضيفات
العبث والجنون
يا لَهَوان الكتابة!
أعمق من الفالق الأناضولي
كـــتاوت
لا ملاك ولا شيطان
والله ونُلتها يا قُفّة!
رد فعل مَرَضي على ظاهرة مَرَضية
أنانيـة البشـر
الكتابة المنتظمة
فنُّ تخريط البصل على القلوب
العربي كتاوت.. ونِيْلَة الماكوكو!
العربي كتاوت.. والشَّطَّاف المكهرب!

بط وجرجير
بلاد الكفر و الضلال
روبابيكيا
البحث عن غسيل نظيف
خفض منسوب النذالة
رؤية ضيقة
الموبايل و الطربوش
آه يا بنت المحظوظة!
عن خطايا البط و الجرجير
فول نابت
بلاد رينا الجميلة
الشهرة المخلوطة بالعار
21 جـــــرام
الإساءة وروح الدعابة
الحمامة المطوَّقة
ثلاث بطاطين
حـــيرة
ورقة لحمة
وزن الـــروح
صديقنا قارئ هذا الكتاب